سيرة الناطوري

مصطفى البلكي

سيرة الناطوري

رواية

مجموعة النيل العربية

عنـــوان الـروايـــة: **سيرة الناطوري**
تأليـــــــــــف : مصطفى البلكي
رقـــم الإيـــداع : 17306
الترقيـــم الـدولـــي : 978-977-377-173-0
الطبعـــــــــــة : الأولى
سنة النشـــــــــر: 2014
الناشـــــــــر: **مجموعة النيل العربية**
العنــــــــوان : ص.ب: 4051 الحي السابع
مدينة نصر 11727 القاهرة – ج.م.ع
التليفـــــــــون : 26717134 – 26717135/ 00202
الفاكـــــــــس: 26717135 / 00202
البريـد الإلـكـترونـــي: info@arabnilegroup.com
sales@arabnilegroup.com
arab_nile_group@hotmail.com
الموقع الإلـكـترونـــي: www.arabnilegroup.com

حقوق النشر :
حقـــوق الطبـــع والنشر بكافة صوره محفوظة للناشر"**مجموعة النيل العربية**" ولا يجـــوز نشـــر أي جزء من هذه الرواية أو اختزان مادتها بطريقة الاسترجاع أو نقلها على أي نحـــو أو بأية طريقـــة ســـواء كانت إلكترونيـــة أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بعد الرجـــوع للناشر والحصول على موافقـــة كتابية منه. ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلـــة القانونيـــة مع حفظ كـــافة حقوقنـــا المدنية والجنائية .

البلكي، مصطفى.
سيرة الناطوري: رواية/ مصطفى البلكـي.– ط1. – القاهـرة: **مجموعة النيل العربية**، 2014.
144 ص؛ 20 سم.
تدمك 978-977-377-173-0
1- القصص العربية
أ- العنوان 813

تنويه 1 :
لقـد تـم بـذل أقصـى جهـد ممـكن لضـمان احتواء هذه الرواية على مادة أدبية متميـزة ترتقـي بذوق القارئ العربي وتحقق له المتعة الفنية مع مراعـاة عدم المساس بثقافتنا العربية الأصيلة وأعرافنا وتقاليدنا العريقة. ومـع هـذا، لا يتحمـل الناشـر: "**مجموعـة النيـل العربيـة**" أيـة مسـؤوليـة قـانـونية فيما يخـص محتوى هذه الرواية أو عـدم وفائها باحتياجات القارئ كما أنـه لا يتحمـل أيـة مسؤولية أو خسائر أو مطالبات متعلقة بالنتائج المترتبة على قراءة أو استخدام هذه الرواية.

تنويه 2 :
إن مادة هذه الرواية والأفكار والرؤى المطروحة بها تعبر فقط عن رؤية مؤلفها وتوجُّهه الفكـري والأدبـي، ولا تعبر بالضرورة عن رؤية الناشر وتوجُّهه.

العودة لا تعني لي شيئًا، لكن تعيد وجودك

مصطفى

(1)

اليوم الكابوسي

كالشمس التي ترسل ضوءها الفاضح، فتحدد المرئيات ويرتدي كل معلم ثوبه ولونه، بدأت رحلتي الملحة، بعد زمن قلت فيه: ليس أوانه.

لم يكن بالسهل المتاح أن أبحر عبر الدروب البعيدة من دون أن أكون مثل فرس النبي الذي يحب الأغصان الخضراء، فهي تعيش ما دامت في البراح، لكنها أحيانًا تغادره إلى اليابسة فتكون نهايتها، يعبث بها الأطفال لوقت قصير.

ها أنا أقف على ناصية يوم يولد، أراها تسحب جسدها من تحت الأغطية التي تدخل تحتها بعد العشاء، وتظل تتقلب أسفلها حتى تباشير التواشيح التي تحرص على سماعها من الشيخ فولي.

أحس بخطواتها الهامسة على أرضية الغرفة العلوية، فور أن يعلن الشيخ فولي أن الصلاة خير من النوم، تتقدم من الشرفة، تفتحها، وتقف

خلفها، تلمح الجد هاشم وهو يريح جسده على المصطبة التي بعرض الحائط، يلحق به الربع الذي زهد حياة البنايات العالية، والباقون يمضون مكتفيـن بإلقـاء تحية الصبـاح، ليتفرقوا، كل واحد فـي منفذ من منافذ الرهبة المنتشرة حولها، أحيانًا ينضم إليهم العم سليم إذا صادف اليوم يوم سوق.

دقائـق معدودة، وأكـون أمامهم، بيدي صينية، عليهـا أكواب اللبن، وقطع الكعك، وطبقًا لمجريات اليوم أضع الإفطار بجوارهم، وبعد وقت قصير، أعود، أحمله دون أن ينقص منه شيء.

بعد أن أريح الصينية، يصلني صوتها:

- فطروا؟

أقول: لا.

تقول: طيب.

- المضروب في قلبه جه.

أقول: لا

تصعد إلـى الطابق الثاني، تدخل الغرفـة المغلقة بمفتاح لا تملكه إلا هي.

في أيام الطفولة، إذا ما أغلقتها في وجهي، كنت أصرخ، وأظل أضرب الباب بيدي الصغيرتين، أقطع ذلك بإعطاء نفسـي فسـحة من الوقت،

لأتحسس رد فعلها، فإذا ما وصلني همس قدميها على أرضية الغرفة الخشبية، سكت، أما إذا ما تأخر تجاوبها مع صرخاتي، صعّدت من صوتي، حتى يصلني دوي انسحاب المزلاج من مخزنه، فأراها تفتح الدولاب، تسحب الشال المبقع بدمه، وجلبابه القديم، تبدو في وقفتها وسط العتمة، كأنها جزء من حياة لها من المقومات ما يكفيها على صنع دنيا.

هي الآن بين مكونات حجرة تدرك مكنون ما بها من أشياء، تعرف أن أغلب مكوناتها عاصرت علو نجمه، وكذلك ضياع حلمه، تفتح الطاقة الموصدة، تطل الصورة، تسحبها، ثم تدنيها من صدرها، وبعد وقت قد يطول أو يقصر، تريحها تحت إبطها وتنزل.

اليوم منذ بدايته يبشر بأنه يخالف سابقيه في النكهة، كذلك في تغيير ناموس اليوم لدى «سكرة»، أمي، التي لها في ذلك اليوم طقوس لا تفرط في أي مفردة من مفرداتها، لا تبدل، أو تعدل، بعد أن تركن الصورة والشال، تسير بترتيب أخذته من أمها، نظرة واحدة تكفي لأعرف أنها بدأت في العجن، وهي تهمس بصوت لا يبين:

الناس كتيرة وأنت ليه غايب

يا للي قطعت الود والنايب

الناس كتيرة وأنت غايب فين

يا للي قطعت الود والنايبين[1]

مع بدء الخبيز، يقتحم الدخان القاعة الأمامية من الدار، فيصعّب عليَّ التقاط أنفاسي، أقوم إلى ضلفتي الشباك، أفض التزاوج بينهما، فتخف حدة الدخان، التي مع الوقت تختفي تمامًا، لكن قد تتكاثف فأعرف أن بطن الفرن قد اختنق بالوقيد، الذي إذا ما حرك بواسطة البشكور[2]، فإن الدخان سوف تخف حدته.

مع انتهاء حركتها الأخيرة، والمعتادة أيضًا، يصلني صوت انسحاب مزلاج باب الغرفة المقابلة للقاعة، علامة على خروج جيهان، وهي تلعن الجهل وأيامه، وتتساءل عن اليوم الذي سيأتي وتندثر فيه تلك العادة، تذوب الكلمات في صمت يبتلع ما تقول، فلا تجد إلا اجتياز الطرقة الفاصلة بين غرفتها والقاعة التي أقيم فيها، تقف على بابها وقد تلون وجهها بغضب ظاهر.

فلما دخلت، تحركت إلى المرآة المعلقة بواسطة مسمار على الحائط المقابل لسريري، بهدوء شرعت في ضبط خمارها، تأكدت من انسدال الساري فوق جسدها، وطبقًا لتسلسل الأحداث أكون قد لممت فرشتي ووضعتها فوق تربيزة صغيرة.

انتظرت حتى أكملتُ ارتداء ملابسي وقالت بضيق:

---

(1) عدودة من التراث الشعبي.

(2) قطعة من الحديد يجذب بها الخبز من الفرن.

- عاجبك أمك؟

- فيه إيه؟

- مش عارف ولا بتستهبل؟!

جيهـان أحيانًا كثيـرة لا تقيم حدودًا لفارق السـن بيني وبينها، كان لا بد من إعادة العقل إلى رأسها:

- حاسبي على كلامك ومتنسيش أنا أخوكي الكبير.

- ما هي دي المصيبة.

رفعـت يـدي لأصفعها، فلما رأيـت الفزع في أكمل صـوره، جعلتها معلقة في الهواء، وتابعتُ الفزع الذي حل ضيفًا على وجهها، فتحوّلتْ إلى جسـد متخشـب من وقع ما قمتُ به ولم أكملـه، رضيت بالنتيجة التي وصلت إليها، فما كان مني إلا أن احتويت جسـدها بعيني، بضمة تشبه تلك الضمة التي أعقبت رجوعنا من دفن أبي، يومها كانت خلف نعاج جـدي الناطوري الكبير، ترعاها خلف بيوت الرهبة، اقتربتُ منها، جذبتها بين ذراعيّ، استكانت، فبدأتُ أمرر يدى على خصلات شعرها المسترسل على ظهرها، ولم أدر إلا بالسؤال يخرج بطريقة أذهلتني:

- أبوكي فين؟

جيهان الصغيرة يومها، التقطتْ السؤال، فملأ وجهها حزن شفيف، قبل أن تميل بعنقها بعيدًا عن وجهي، لمحت دموعها تولد، تمامًا كما

حدث اليوم وأنا أخفض يدي محملًا إياها سبب ما حدث، كونها طولت لسانها عليَّ، ضممتها إليَّ، وأحصيت لها المرات التي فعلت معي ما فعلت، كلماتي أصابت الهدف.

فقالت: سامحني

قبل أن تخرج سألتني: إن كان يعجبني ما تفعله أمي؟

قلت: فلوسها وهي حرة فيها.

سكرة الآن أمام فوهة الفرن تعمل بنشاط زائد، تخبز البتاو الرقيق الذي نحبه والتي تقول عنه: إنه لا يأخذ وقيدًا كثيرًا، لدرجة أن طستًا من الوقيد يكفي لإنضاج مشنة كاملة، هذا لا يصيب النسوة بالدهشة، لأنهن يقلن لأنفسهن: أبوها مين؟ مش الناطوري.

تجلس بنفس الجلباب القديم، يقبض على بعض زهوته، رغم كل السنين التي مرت على اليوم الذي شهده، حينما خرجتْ والشمس بالكاد وصلت لشواشي النخيل، فأكسبتها لونها البرتقالي، أنا بجوارها حافي القدمين، ليس عليَّ إلا جلباب من النهضة المخطط، بالكاد أجاريها في العدو، تسد أذنيها عن كلام النسوة اللاتي يطالبنها بالهدوء رغم كلماتهن التي كانت ترف فوق شفاههن، والتي تؤكد ما قاله لها الرجل القادم من السوق:

- ربنا يطمنك عليه.

- بيقولوا إنه في الوحدة الصحية.

اخترقت الكلمات رأسها، فجرت بعزم ما في جسدها من قوة، أبطأت حينما لاحت الوحدة الصحية. اقتربنا، وجدنا الناس تلتف حول مبناها ذي الدور الواحد، أجسادهم متداخلة كأنهم يصنعون حلقة يصعب اختراقها.

وصلتُ برفقتها، فإذا بالجموع تحول دون نفاذها إلى غرفة الكشف التي يسدها «سيد محسب» بجسده الجهم، فلم يكن أمامها إلا أن تصرخ:

- عاوزه أشوفه يا ناس.

لم يتحرك أحد، وإن كانت قلة من العيون انتبهت إليها، وراحت تأكل جسدها المدثر داخل جلباب «الباتستا» المنقوش بالورود وأوراق الشجر.

كانت العيون المحدقة مفتوحة عن آخرها، غير مصدقة أن التي أمامهم سكرة بشحمها ولحمها، بنت الناطوري، التي لم يستطع ابن عمها أن يأخذها من فوق ظهر الفرس، يوم أن جهزت لأحد أبناء القرارية.

نظرات تقول إن النية غير مبيتة لديهم بأن يجعلوها قيد التحفظ في المآقي.

يومها لم يكن يهمها كم العيون المشدودة بقدر أن تفتح منفذًا لها، لتلج منه، لترى المسجي على سرير الكشف انتظارًا لسيارة الإسعاف.

طبيب الوحدة كان يستعجلها من استراحته، تاركًا لسيد محسب مهمة الذود عن الغرفة.

لم تجد فائدة من الصراخ في الحائط البشري، فمدت يدها جذبت إحدى لبنات الحائط، فتراجع للوراء، ومال بعنقه، كاد أن يفقد اتزانه، لكنه حينما عرفها، كبح جماح غضبه. تقدمت واحتلت مكانه، وصرخت، على الفورعلّت الهمهمات، من نتاجها، برز الجد هاشم كأن الأرض انشقت وأخرجته، بيده جذبها، فتعلقت بوجهه المدور والمنمق بلحية كانت مزيجًا بين الأسود والأبيض، هتفت:

- عامل إيه؟

قال: كويس.

وأشار إلى الغرفة الموصدة، الواقف على بابها سيد محسب، قال لها إنه بداخلها.

تبعثرت الكلمات من الأفواه، وانشطرت الحروف، لتكون في رحلة تجمعها مرة ثانية اسمها.

أحست بالكلمات وحسبتها قدت من نفس «الشومة» التي هوت على رأسه.

الكلمات كانت تلضم، وتتضخم، وتمر، لكن أين العقل الذي يتناولها ليغربلها ويحللها! فهي كانت في أتون مشتعل، تنكش بعينيها الدامعتين وجه سيد محسب، تستجديه، فلما طال زمن وقوف عينيها على وجهه، فطن إلى ما تريده، فرفع يده، جاعلًا أصابعه مضمومة، ما عدا السبابة، راح يشير به ويطلق الطمأنينة في قلوب الناس:

– يا جماعة الحاج كويس، والدكتور كتم الدم، بس هو همدان شوية.

الموج الساكن، عاد ليهدر أكثر من الأول، هي نقطة فيه، همها الشاطئ المتشبث به سيد محسب، بعينيه كان يتابعها، رأى حركتها نحوه فتراجع والتصق بالباب.

اقتربتْ حتى لم يعد بينها وبينه إلا قيراطان «بضم إصبعين»، أمسكتْ برقبته، دبتْ أظافرها، علمّتْ فيها، وهو يخفض يديه، في وضع المستسلم، لكنه تحرك تحت وطأة القبضة، لمح الجد هاشم حركته، فكان حائطًا بينها وبينه، ولم يكتف بذلك، بل شده من ياقة قميصه الناشع برائحة «الديتول»، وأخذ يضيق عليه، حتى مال رأس سيد على صدره، وزعق في أذنه:

– يا واكل ناسك نسيت دي بت مين.

– أنت كده بتأذي موظف حكومة.

أطلق الجد هاشم نظراته النارية، تحرق وجه سيد المحتقن النافرة عروقه، وقالها صريحة: طز.

رغم الحزن الماسك بيديه وأظافره في وجوه قلة منهم، إلا أن ضحكات نبتت، قصيرة العمر، قدر لها أن تموت تحت وطأة معول نظرات سيد، لم يستقر طويلًا على سحنهم، سحب عينيه، وأسكن فيهما الرجاء، يطلب من الجد هاشم أن يفك وثاق القيد المحوط به رقبته.

كلما تذكرتُ قوة تلك اليد التي تمسك بالطباشير، وتكتب كلمة زرع وحصد، أتعجب، وذات مرة، كان لا بد من سؤاله ليوضح لي كيف حدث هذا، قال: كانت حلاوة روح.

هي وحدها سكرة من خلصت رقبة سيد محسب، مدتْ يدها وخلصته من القبضة القوية، وسحبته للخلف خطوتين، ليترك لها الباب، فتدير الأكرة، وتدخل عليه، ويحل الجد هاشم مكان سيد.

دخلت، فوجدته مسجى على سرير الكشف، يقوم فوق رأسه حامل، معلق به محلول، يولد منه خرطوم ينتهي بإبرة لعينة، مغروزة في أحد عروقه، وملاءة متسخة، فردت على جسده الساكن، شملته كله ما عدا الرأس، كان حاسرًا وملفوفًا بالشاش المبرقش بدمه، انحنت لما لمحت شاله الملقى تحت السرير، كورته ودسته في عبها، ثم رمقت جسده، وجدته ساكنًا، استقرت عليه ملامح لم تفلح في تلخيص معانيها إلا بعد إعمال الفكر، استطاعت القول إنه وجه كان يجادل، أتعبه الكلام والأخذ والجذب، فشرع في غلقه بالضبة والمفتاح، فكانت تلك الصفحة.

هذا التفسير لم يرق لعقلها، كما تقول، فتخيلته مسافرًا، امتصت الرمضاء من جسده آخر شحنة من عافية كانت مستوطنة جسده، فرأى شجرة، فهرول إليها، وقبل أن يصل لحدود ظلها، طلع السر الإلهي.

كان لا بد أن تقطع حبل الأفكار، قبل أن يتمدد، ويلتف حول عنقها ويكتم أنفاسها، قطعته ومدت يدها، ربتت على صدره، لتدخل الاطمئنان

إلى قلبه، هذه الحركة فعلتها، قد يكون وصله ما كانت ترمي من ورائها. لكن كيف لي أن أقول له إن حقه لن يضيع وأنا الأنثى، بل أنا كل ذريته، أو من بقى له بعد ثلاث بطون ماتوا جميعًا في رحم أمي، صحيح قنع بي أنا الأنثى، التي بالنسبة لكثيرين لا تحسب لأنها مصيرها للزواج، ومغادرة البيت، والفائدة الوحيدة التي تحسب لها كونها فم يطلق صرخاته في حال إذا مات الرجل... هذا المنطق لم يكن يروق له يا ولدي، وما فكر فيه، بل هو الوحيد الذي شذ عنهم، لا لأنه يريد المخالفة، فهو أحرصهم على التقاليد والعرف الذي يحكم به بينهم لكن لأنه لف ودار كثيرًا، عرف أن الأنثى تملك صلابة قد لا يمتلكها فحول الرجال، هكذا كانت تقول، وتضيف. وهذا الفكر هو الذي دفع به إلى أن يوبخ عمتي عندما خرجت من الرواق، لترد على سؤاله لها، حينما قال:

- جاب الله إيه؟

قالت عني: ملطوشة.

زام، وأطلق من فمه كلمات كانت كالسيل جلد بها جسدها، وعندما توارت في إحدى الغرف قال: جاتك داهية، جملة سكنت في أذنيها، فحرمت على نفسها البيت، فلم تدخله، وكانت دائمًا، تقول: خلي أم عنبور[1] تنفعك، حتى الألسن الوسخة التي تبخ سمها في أذنه والتي تطالبه بالزواج، من أجل ولد يصلب ظهره، إذا ما عوجته الأيام، كان يضحك ويقول لهم: سكرة بألف راجل.

(1) المقصود بها عضو الأنثى.

هـذا كان ثابتًـا في عقلها، لكـن في تلك اللحظـة تمنت أن يكون لها أخ، يسـتطيع أن يحمل أباه ويكمل مسـيرته، مسـتفيدًا بما استقر في العقول.

(2)

زهيرة

حكاية القريللا

لاكتمال الصباح لا بد من تلك الثورة التي تفتعلها جيهان، حينما تضع إصبعهـا في كوب اللبن، تجده باردًا، والكعك طاله بعض البلل من جراء اللبن الذي أُريق بعضه، أثناء رفع الصينية من جوار الجد هاشم والربع.

رد الفعل دائمًا يأتي أقل من الفعل نفسـه، فلو أنصتتْ سـكرة لرأي زهيـرة المصراوية، لتغير الأمر، لكن كيف وهي من تدخل الفصل بدون عصا، يكفيها النظر إلى المذنب بعينيها، فيتخشب جسده داخل ملابسه «تلـك النظرات تفقد أثرها إذا مـا ولجت البيت، وارتدت الملابس التي تحتوي على الكرانيش والسفرة العريضة الموشاة بالكلف والترتر».

جيهان الآن عائدة إلى غرفتها بوجه مكفهر، تقابلها زهيرة، ترمي ابتسامتها على الوجه الغاضب، وتدحرج الصباح المقترن بالفل ثم تتبعه قائلة:

- إزيك يا أستاذة.

- شرفتي.

تقولها ببرود وتدخل غرفتها.

تبدي زهيرة تعجبها من صاحبة الرقبة المعوجة، وتهمهم هامسة:

- علينا ووطي نفوسنا.

أعـرف أن أمي لن تقص ما حدث على زهيـرة، وبنفس القدر أعرف ردها لو سمعت، فلو حدث فإنها تضحك وتقول:

- ليها حق تعمل أكتر من كده ما هي بنت اللبدة والرغيف.

أمي في تلك المواقف، تبتسم لأنها تسمع ما يطرب داخلها، فاللبدة كانت غطاء رأس الناطوري الكبير، والرغيف كان مطعمه، ربما من باب التمادي، تعيد سكرة الحكاية مرة ثانية، لتدفع زهيرة إلى تلك المنطقة التي تحب العودة إليها...

فـي مثل تلك الجلسـات كلمة تجر حدوتة، وعلى حسـب القول، تكون الحكاية مجسدة من فم زهيرة الناصع الأسنان، فمثلا لو قدر وفُتح قمقـم الحكايات من جراء ما فعلته جيهان، لكانـت حكاية القريللا[1] هي سيدة الموقف.

(١) نبات زهري يطبخ.

على مهل تقول:

- وحد ربك يا مسلم.
- لا إله إلا الله.
- كمان زيد النبي صلاة.
- ألف عليه.

(أيامهـا كنا في حال صعب، الدنيا غلا والناس تقدر تقول إن قيامة عليهم قادمة، والشـاطر الغالب من يقدر على جمع ما يكفي أهل بيته وجبـة واحـدة، ومـن عجائب هذه الأيـام أنه لو اعترض أحـد هذا الرجل الشاطر، وسأله: معاك... دون لف أو دوران، يفك حجر جلبابه، ويتقاسم مع السائل ما جمعه، دون أن يعرف مدى صلة الرجل به، يتساوى القريب والبعيد...

قول طالت الحالة كام؟ شهور والناس في كرب، والحكومة ولا على بالها، كل ما تملكه أن تقول «شـدوا الأحزمة» والأحزمة المشدودة عندما لم تجد قبب البطون لتستريح عليها، راحت تأكل في لحمها.

أيامها كنا في الحقول والناس تسـتعد للشـتاء، ولأن الشـتاء موسـم برسـيم وقمح، زاد هم الناس وحيرتهم، فأصبحوا فريسـة بين المطرقة والسندان، لأن البطون خاوية تطلب الحب، والبهائم ذلك النوع الأخرس تشتاق إلى البرسيم، لينتفخ الضرع، فيعطي خيره.

فأصبح السؤال الإجباري: ماذا نزرع؟

الـرد الجاهز خـرج من الوجوه التـي لا ترى إلا تحـت قدميها، تربع هـذا الصنـف وشـمخت رؤوسـهم، وخرجت الكلمـات، قالـوا: نطعم البطـون بالحب، فإذا ما كنسـت الصوامع، فالبهائـم تقبع في الزرائب، أمـا أصحاب العقول التي كانت مسـتقرة في مكانها، قالوا أطيعوا أولي الأمر، فقصدوا الجمعية الزراعية، كان يشغل مكاتبها حفنة من الأفندية، سمعوا، فغرقوا في شبر ماء، وعادوا من هناك بجعبة خاوية وكأنك يا أبو زيد ما غزيت، وجلس هذا الصنف بجوار الجدار ينتظر، أيامها كان جدك الناطوري والأفندي زوجي في رحلة دروشـة، أخذتهم إلى أعتاب السـيد الحسين، ولما حضر وشاف الحزن المقرفص في العيون، وكذلك الوجوه المعصورة من وطأة الحزن، شد حزامه، ومسك عصاه الأبنوس، مر على الحقـول، خصم المسـاحة التي زرعت قمحًا وجدهـا بالتقريب نصف زمام البلد، قال الباقي ليس قليلًا.

وفات على الجدار وطالب من الذين يضعون خدودهم على راحات أيديهـم بـزرع نصف مـا يملكون من أرض بالبرسـيم المخلـوط ببذور القريللا والنصف الآخر يزرع قمحًا...

كانت نظرته بعيدة، فعندما كان بجوار السيد سمع كلامًا عن الحكومة التي شرعت في توزيع معونات على الناس، لمواجهة حالة الكساد التي شرب منها الجميع.

تلك المعونة، أو قل الكرتونة لم تتحمل إلا شهرًا، راحت بحلوها ومرها، وانتظرنا «الحلزونة» أن تأتي بغيرها، فلم تأت، كأن البهوات قالوا لنا: موت يا حمار، وقتها كان البرسيم طلع على وجه الأرض، كان يفرح، وبينه القريللا بأزهارهـا الصفراء، وكان الوقت وقت برمهات، كنا نحضر القريللا نقطف ورقها ونلقي بها في الطست والأغصان نجعلها أمام البهائم.

وحول الطست نتجمع في دوائر، حتى إذا ما تسربت رائحتها الحريفة بفعـل الدقة والملـح الأبيض، رحنا نخـرج الأوراق، ونجعلها على هيئة كرات، وبراحة اليد نظل نعصر حتى تخر منها آخر قطرة ماء، وبالعيش المقمـر نأكل، ونحمد رب العباد، ونشـكر الناطوري الذي جُعل سـببًا لملء البطون).

هكذا هي في وقت آخر، أما في هذا الصباح فإن الأمر يختلف، عملًا بالمثل القائل: إن لكل مقام كلامه...

فها هي تدخل على سكرة، تقول لها: تعيشي وتفتكري...

- عشتي يا أختي.
- قلت لهاشم النهاردة ينساني.
- عشمنا فيك يا أم تهاني.
- وهو يقدر يقول حاجة!

تقول ذلك وهي تشمر كمي الجلباب إلى ما بعد الكوعين، مقدمة لأن تحل محلها أمام الفرن، ذلك المكان الذي لا تتركه سكرة إلا لها، لتجلس بجوارها وهي تأخذ القطع بمقدار، فتجعلها على راحتها، ثم تلقي بها على المطرحة، وهي تردد:

- رحمة ونور عليك يا حاج.

تقول أمي إنها منذ حضورها وهي تشرب كل شيء، لتصبح بعد مدة قصيرة كأنها بنت من بنات الجنوب، لا ينقصها شيء، حتى ولو حدث واعترض حياتها أي عارض، كانت تسأل، ولأن عقلها يقظ، كانت تعرف وتتعلم.

والدليل على شطارتها، الخبيز الذي تباشر الآن شئونه، فبشهادة سكرة نفسها لا توجد أي امرأة من نساء البلدة كلها تعرف ترمي رميتها ولا تخرج خبزًا يشبه خبزها.

ولأن المكان لا يقبض إلا عليهما، توقن زهيرة أن سكرة لو دخلت جب الحزن فلن تخرج منه إلا بعد أن تأخذ كفايتها من الدموع، لذلك تطالبني بالجلوس بجوارها لأشاركها في أكل أول ما خبزت، تشده بالبشكور وتقول:

- في يوم دخل جدك مع هاشم، وكنت ساعتها غطيت الماجور بعد ما عجنت، قال: عاوزين نتغدى. بالمصادفة كان اليوم هو اليوم الأول الذي أجرب فيه الخبيز، بعد تجارب دخلتها بعجن الطين.

بسرعة قلت له:

يا عجين عجنتك

بصلي على النبي ختمتك

النهارده قومة

وبكره خبزتك[1]

لم يعجبه الرد، فالتفت إلى هاشم، وخطا حتى نهاية المجاز حيث الدكة، جلس عليها، ودك عكازه وقال: مسكت عصاتي واتكيت، وحلفت ما مشي غير ما اتغديت.

ساعتها كبرت في دماغي، وأقبلت على الفرن ورحت أعمل اللازم، وهو يقول: الحلو قرب. ولما انتهيت قال: وجب الغدا يا هاشم، مرة على نفسي، ما أنت ياما كلت من أيدين خضرة. مد هاشم يديه وقرأ الفاتحة لخضرة بنت عبد الله.

أهم بالخروج، لأن كل شيء اتخذ صفة الدائم، المرتكز على فعل حافظت على فعله كل السنوات الفائتة، في المرة الأولى، وأنا أهم بالخروج في اليوم الكابوسى، قالت لي:

- مر على أبو فريج وكمان متنساش الشيخ سيد.

(1) من التراث الشعبي.

أدرت وجهي، ونظرت إليها منزعجًا، هي لم تشأ أن تدخل معي في جدال كان لا نفع من ورائه، خصوصًا أنها هي من تقرر، لكنها قالت:

- الموت من الحاجات العادية، كل يوم بنشوفه، أما اليوم المشهود فهو ده اليوم اللي لازم نبصله بعين مفنجلة...

(3)

الجد هاشم

للنهار شمسه الطازجة، التي بدأت بصبغ قمم الأشجار والبيوت بلونها الذهبي. رغم هذا النشاط المعتاد والثابت فإنه هنا في الرهبة، رغم الضجيج الواصل إليها من خلال منفذ السقيفة، ما زال الوخم يسكن دورها.

بيت الجد هاشم الذي اشتراه ليكون بجوار بيت من أحب، ثابت لديَّ يقينا أنه لا أنفاس فيه تتردد، هو كذلك في مثل هذا اليوم، الذي يبدو لي الآن كأنه لم يضم بين جنباته رجلًا وامرأة، خرجت لتشارك أمي الخبيز، وبنتا تزوجت، وأنجبت من البنين ثلاثة ومن البنات واحدة...

باب المندرة المفتوح على الساحة مغلق والباب الكبير هو الآخر موصد، والشباك موارب، ينفذ منه صوت الشيخ محمد رفعت.

من الخارج يبدو البيت يعاني من إهمال الجد هاشم، الذي دائمًا ما يقول إذا طالبه أحد بترميمه: لمين؟

هـذه هي حال البيت بعد أن يفارقه، تقـول زهيرة: بعد أن يعود يظل مسـتيقظًا ولا يقربني في تلك الليلة وفي الصباح يرفض أخذ أي شيء ليشـق به ريقه، ثم يخرج، وتمصمص شـفتيها وتشب في عينيها دموع وتقول: والنبي على طول كده من ساعة اليوم المشئوم، يطلع وما عرفش هو رايح فين.

مرات كثيرة قصت لأمي مجريات تلك الليلة التي خلفناها منذ ساعات.

نسختها الأولى.

رأته وهو يروح ويجيء في البيت، يدخل الغرفة ويخرج، وبجوار الشرفة يشعل سـيجارة، يلتهم نصفها ويدفن الباقي في الإفريز، ثم يقوم ويعود ثانية إلى الغرفة، تقول: سوف يوقظني ويتكلم.

هـي مـن حركته تعـرف أن هناك شـيئًا ما يشـغله، هـذه المرة ليس جسدها، بخبرتها تعرف ذلك، فيده لم تمتد إلى الطاقة التي في الجدار، ولم يسحب منها علبة الكبريت المحشوة بالأفيون، قالت ربما في جيبه قطعـة، وحينما لم تسـمع غرفه الماء حينما خرج، كسـا وجهها الندم كونهـا أفنت ربع صابونة، وارتدت أشـياء جديدة، رآها معلقة على حبل غسـيل أم ياقوتة، وكثيرًا ما طلب منها ارتداء واحدة، حين سـمعت منه ذلك، قالت لنفسها، ياما تحت السواهي دواهي.

هي الآن تحت اللحفاف، وهو يتحرك كدجاجة تريد أن تضع بيضتها، تنتظر يده لتهزها، وحسب مزاجها يكون ردها، كثيرًا ما زامت، وقلبت نفسها، وجسدها يغيب بأكمله تحت لحاف ما زال يحتفظ بكسوته كما هي منذ أن تزوجها، وأحيانًا تنتظر يده لتلمس جسدها فترمي اللحفاف، ويظهر جسدها الأربعيني وهو نصف عار، تتربع وتنصت إليه، وهو يخرج ما في بطنه من كلام، موقفها يتوقف على فتح الطاقة وصوت غرفه للماء.

أحيانًا تطول أيام سكونه، فتقول يمكن مش عاوز، رغم ذلك تستحم كل يوم، وتريق على جسدها عطرًا من زجاجة عطر حريمي تحافظ على وجودها دائمًا، معتمدة على اقتناعها بأن عملها اليوم بطوله على ماكينة الخياطة، حتمًا ولا بد سيكسبها رائحة الملابس الجديدة، علاوة على العرق، تجدها فرصة وهو يقعد مع شلته، تراهم وهي تعود من بيتنا، وهم يتحلقون حول المنقد في جلسة صاخبة، لا تخلو من الصوت العالي، بسبب النقاش الذي يدور حول مواضيع الساعة، وما تبثه الإذاعة من أخبار.

تدخل تختار كل يوم قميصًا نظيفًا وكركة رقيقة، تكون قادرة على إظهار نسق تكور النهد وبياضه، ولا تنسى الكلوت، دائمًا يكون صغيرًا، ودائمًا تقول لنفسها، أشياء تكون مقدمات للفعل، فالسن له حكمه.

كل ليلة، تقصد الحمام المقابل لجوف الدار، تعلق الملابس على مشجب وضعته خصيصًا لهذا الأمر، تغلق الباب جيدًا، وتنزع ما عليها

من هدوم، وتبدأ عملية التنظيف، وتكون قد احتفظت ببعض الماء النقي والخالي من رغاوي الصابون، تنهي حمامها بدلقها على جسدها.

وهـي ترتـدي الملابـس، تصـر علـى وزن فردتـي صدرهـا، وإجراء فحصًا يوميًا، كما أوصتها إحدى الزبائن اللاتي أصيبت إحدى قريباتها بالسـرطان، وحتى يوقفوه أزالـوا لها إحدى الفردتيـن، فاضطرت لوضع القطن لتحفظ اتزان الصدر.

كثيـرًا ما نزعـت الكركة أمامه وطالبته بتحسـس لحمـه، ربما تكون خانتهـا أناملها، فيكون هـو منبهًا لها، وفي اللحظـة التي تتأكد أن كل شـيء فـي مكانه، ولم يطرأ عليه تغيير، تكمـل ارتداء الملابس، وتقصد المندرة، تمتد يدها لمؤشر الراديو تبحث فيه عن موجة تبث أغنية، بعد تعب تعسـر على واحدة، على وقعها تطلق رزاز العطر على جسـدها، وتبحث عن شال أو إيشارب، تخفي به وجه ابنتها، وتدخل تحت الغطاء، وتنتظر دخوله وما يقوم به، في أول مرة رأى ما قامت به، استغرب، وحينما قالت له:

- دي بنتي ومش لازم تشوفني وأنا نايمة معاك.

ضحك، وخر الماء من عينيه.

أحيانًا، ترى قلقه، فتظل مستيقظة، على أمل، وتقول لنفسها:

«ما دام صاحي يبقى فيه أمل»

فزوجها وتعرفه، كثيرًا ما تمر أيام بدون أن يقربها، تقول:

«صحته على كده»

فهـو فـي الصباح يغادر البيت، ويذهب إلى المدرسـة، يلف ويدور على الفصول، وفي آخر اليوم يعود، يتناول لقمة، ويريح جسـده سـاعة، وبعدها قبل المغرب، يفتح الدكان، لكن ما تعجز عن البوح به له، تبوح به لجارة من جاراتها في شكل أسئلة، تعرف بها عوايد الرجال.

سـمعت ذات مرة من واحدة أن الرجل به قابلية للنساء حتى لو كان يجر على ركبه، لكن المرأة ضحكت وقالت:

«وطبعًا اللي يزور مش زي اللي يزور ويقيم».

هـي رضيت بليل أوله لأصحابه، وآخره لهـا ولأفكاره، هي لم تتذمر يومًـا، ولـم تقل كلمة صريحة تكشـف عن غضبها، وهو لم يشـعر بها ولم يغير من عاداته شيئًا، فبعد مغيب الشمس بساعة، تراه وهو يدخل البيت، تأخذه قدماه إلى جوفه، يأخذ حجرًا من القوالح، ويخرج، لحظات وتبدأ الدخانة تقتحم عليها مكان جلوسها، تتركها، لتتخلص من نموس سخيف، بشرط ترك صلفتي الشرفة مفتوحتين، في تلك اللحظات ترمي بطرحة خفيفة على رأسها، دائمًا تتذكر، وتنظر إلى العباءة، ترى إن كانت ضيقـة أو واسـعة بقدر يكفـي لإخفاء تعـارك ردفيها وتخفـي تفاصيل جسـدها، تطمئن فتخرج، يسـتوي جسدها في السـاحة، ترى أنه ليس من اللياقة أن تمضي بدون أن تلقي التحية:

ـ مساء الخير.

تقولها، وتمضي صوب باب بيت الناطوري الموارب بخطوات ثابتة، تحميهـا عيناه القويتـان، والقادرتان على إيقاف عيون الجالسـين إليه خصوصًا الربع، أما في عودتها تكون قادرة على رؤية جسدها يسكن في عيني بعض الجلوس، نظراتهم تضايقها، وتجعلها تنسـى كثيرًا بعد أن يتسـلم زوجها يـدي والدها أن تقول له إن هو تعـب فليناد عليها، فهي دائمًا تجلس في مجاز البيت تنهي حياكة ملابس كانت قد انتهت منها في الصباح.

في بداية تلك الجلسات صارحته بانزعاجها منها، وطلبت منه الاكتفاء بفتح الدكان إلى ما بعد العشاء، هو لم يسمع لشكواها، وحينما تكررت أشار عليها بأن تشغل نفسها بالعمل، ترددت في البداية، لكن مع تكرر عرضـه، وافقت وبقيت بعض الأيام تعمل فـي مندرة تقابل غرفة نومهم حيـث الماكينة موجودة، وبعد أن أحسـت بثقل الوحـدة نقلت قعدتها في المجاز تحت لمبة نيون، شافها فسألها عن سبب التغيير، فقالت:

- علشان أكون قريبة منك

ثم سكتت، ولما رأت استغرابه، أكملت:

- يكمن تعوز حاجة.

سألت نفسها بيعمل ليه كده وانتظرت شهورًا حتى عرفت طبعه، وسلوكه، في أي لحظة يعرفها أنه يريدها، ولذلك كل ما عليها أن تكون جاهزة.

هي الآن تراه وهو ينزع الإيشارب عن صورة تهاني، تراقبه وتسحب اللحاف، تغطي جسدها وتراقبه.

توجه إلى الصندوق، ومنه أخرج صورة تجمعه مع الناطوري، وبتركيز وضعها أمام عينيه، رأت هي استحواذ الصورة على كامل وعيه، وانتظرت اللحظة التي أبعد فيها الصورة وسألته، فقال، بكره يوم السوق، بكره يومه.

أنا الوحيد الذي يعرف أين يكون في صباح هذا اليوم.

ذات مرة، صادف خروجه خروجي فرافقته، وهو ساكت، وأنا بجواره، ولما وجدته يأخذ طريق السوق، تعجبت، لأن اليوم ليس يوم السوق، وكان لا بد أن أسأله:

- النهاردة إيه؟
- كان سوق.
- النهاردة؟
- زى النهاردة من زمن.

كان لا بـد أن أصمـت، لأننـي أعرفـه، فهو لا يحب الـكلام المكرر الـذي يحمـل معنى كلام قيـل، علمتني إياه عصاه، ويـده حينما كانت تترك بصمتها الطباشيرية على صدغي.

سـرت بجواره، وعينـه تمد خيوط الرؤيـة في اتجاه السـوق، وأرضه المسـيجة بالحديد المسـنون في أعلاه، التي لاحت لنـا حينما اقتربنا، وهي تعكس أشعة الشمس التي كانت تغمر الأرضية المسكونة ببعض الحميـر المطلوقة، وحفنة من النسـوة قاطنات عزبة النقـورة المتاخمة للسـوق، اللاتي تركن الأغطية والدثارات على السور المقابل للبيوت، ولما رأى الباب الحديدي، وقد تم التزاوج بين شقيه، وقف ووجهه جهة الأرض المحناة بالروث، بصق ورفع وجهه، عانق البيوت والنسوة وقال:

– أنجاس ولد أنجاس.

قلت له: فيه فتحة هناك.

نظـر إليَّ نظرة شـك، فأكـدت له كلامي، بأن قلت لـه إنها فتحة من فعل العيال الذين يقصدون المكان، ليلعبوا فيه كرة القدم... أطرق برأسه مفكرًا، ثم قال: نشـوف... وسـار بجواري، وما إن بدأنا في الانحراف إلى الضلـع الـذي إذا مـا قطعناه، فإنه يفضـي بنا إلى السـور المقابل لعزبة الطرح، وقف وقال:

– فين المدعوكة اللي بتقول عليها؟

قلت له: هناك.

طارت عيناه في الفراغ خلف سـبابتي وهي تشـير، ولم يعرف نهاية تقف عندها رحلته، فكان لا بد أن أحددها وأقول: في الوسط...

بالجنـب قام بإدخال جسـده، وأنا لحقت بـه، وتبعته وهو يتجه إلى شجرة الجميز، وسط تحديق النسوة واستغرابهن، برك بجوار الجزء البارز من جذعها، وأخذ يربت عليه، ورأيت دموعه تتسـاقط، لوحدها بدون أن تلمس عينيه أي ريح، أو يدخل فيهما أي غبار، قلت لا بد أنه سوف يمد يده ويدعكهم، فلما لم يفعل، عرفت أن الدموع دموع حزن.

أمـي تقول إن حزنه يشـبه حزن النصارى، ذلـك الحزن الذي إذا مس قلب فتاة غضة، ظلت باقي عمرها مكفنة في الرداء الأسود.

ولأن للحزن رهبته وقفت برهة مأخوذًا بالمشهد الذي أظهر لي الجد هاشـم من كان بدخولـه الفصل تغلق أفواه أربعيـن تلميذًا، حتى أنه لو رمى إبرة فيه فإنها سوف ترن.

مشـي براحة يده على عينيه، فمسـح الدموع، وقبـل أن يتكلم نفث صهدًا من فمه، بطريقة تقطّع القلب، وقال:

- وقع هنا.
- مين؟
- لو كان حد معاه.

بحسرة قال، وتابع:

- ولاد الكلب استفردوا بيه.

- قاصدك؟

رددت أنا، وهو لم ينطق الاسم، فقط لمحته معلقًا بين شفتيه، وهو يهز رأسه لفوق ولتحت.

برق السؤال الذي ظل سنين طويلة وهو يتخبط ويتقصع على طرف لساني، وكلما قلت له اخرج، كان يتلوى فتتعثر الكلمات، وتخرج مشوهة.

لكي أخرجه من تلك الزنقة، كان لا بد من أن أدير وجهي بعيدًا عنه...

- وأنت كنت فين؟

سألته، فرد هو:

- في المدرسة.

- يعني مشفتوش وهو؟

وضع بطن يده على فمي، فسكت، ومال بظهره إلى جذع الشجرة الضخم، وأطلق عينيه، لاحق الوجوه الكثيرة الطالة علينا، وتساءل: كيف بقيت كل تلك الوجوه التي تناسخت، بعد الذي حدث؟

- وإيه اللي جرى؟

هكذا خرج السؤال، وأجاب هو:

- دحرجتني الصرخات حتى الوحدة؟

- كنت هناك وشفتك؟

قلت أنا، وبنفس الحسرة تكلم:

- وشفته وهو بيحطوه جوا الإسعاف.

أردت أن أذكره بأنني كنت هناك برفقة سكرة أمي، حينما نهر سيد محسب، وجعله يقف عند حدوده، لكني قلت لنفسي السكوت في مثل هذا الوقت أفضل من فتح باب هو يريد غلقه، ربما ليدخل بي غرفة كلها كنوز منسية، وهذا ما حدث.

(الإنسان بيكون لمرة واحدة في حياته شجاع وإذا ما مسكش فيها عاش طول عمره مشلول، ولحظة الشجاعة دي يمكن تكون لحظة مش كاملة، لكنها بتعلم في روحه)

هكذا بدأ حديثه، وبعده قال إنه رآه بجواره حافيًا يلبس الجلباب على اللحم، وهو مثله، قطرات الماء تنقط من جسديهما، تحت الشجرة، تشع من عيني كل منهما ألفة مشتركة، وقفا تحت الشجرة بعض الوقت، لينعما بالظل تحتها، فخايلت ثمارها عيونهم، فتلمظا شوقًا إليها، فامتدت يد أحدهم، وأمسكت بحجر صغير (لا يذكر إن كان هو أو الناطوري).

الحجر اخترق الأغصان وطار، دون أن يسقط أيًا من الثمار، فنظر كل منهما إلى الآخر، وأمسك كل واحد حجرًا، وتراجعا، ليتمكنا من رؤية الفروع المثقلة بالثمار، وبنفس واحد قالا: هيلا هب... رميا الحجرين،

ليصـدر عنهما خربشـة قوية، وثمـار كثيرة وقعت علـى الأرض، وبينما يجمعـان ما تسـاقط، كان بـاب البيت الكبير يفتـح، وينطلق منه حفنة من الرجال بالعصى، أحدهم يمسك برأسه النازف.

كانوا يزعقون: حلق حوش.

الصوت خيل لهما أنه يصدر من كل اتجاه، فارتبكت خطواتهم، مما أدى إلى الإمسـاك بهما، فوضع كل واحد يديه على رأسـه، يتفادى بهما الضربـات التي راحت تنهال، خصوصًـا المراق دمه، والذي كان يضرب بغـل، وفمه يقـول: كنتـو هتموتوني يـا ولاد الكلـب... الجملة جعلت الناطوري يفلت من بين الرجال، ويسـدد له ضربة تصيب الشيء القابع بين فخذيه، فيقع على الأرض.

سكت الجد هاشم، ومد يده إلى جذع الشجرة، ربت عليه، ثم أكمل:

(التصرف جعل الأيدي تصاب بهستريا فتضرب بعنف، حتى أوصلانا إلى القاعة التي كثيرًا ما قالوا أنها تؤدي إلى حجرة المشـنقة، والعروسة التي يشـبح فيها كل من يريد تأديبه، لأنـه فتح فمه أو رفض العمل في العزبـة، ومـا ندري إلا ويفتح بـاب جانبي، ويطل منه وجـه الكبير، خرج بجسده الجهم. من نظرة واحدة توقن أنه شفط البلد كلها في بطنه الذي يتقدمه، تركنا ووجه كلامه لرجاله:

- عملوا إيه؟
- جرحوا الغفير.

وبينما يتفحصنا سأل:

- بس؟

- ورموا النبقة بالطوب.

قال: كفاية.

فعرفنا أن دماء الرجل التي لم تجف بعد لا تهمه!!

وما ندري إلا به يتحرك نحونا وهو ممسك بخيزرانة، راح يضرب بها الهـواء، فكانت تصـدر صفيرًا، من قوته بدأت أشـعر بالتفكك، وكادت تـؤدي إلـى أن انهار واقع على الأرض... هـو كان يريد إدخال الرعب في قلبينـا، اعتـرف أنه نجح معي واسـتطاع أن يوصلني إلـى حافة الهاوية، أمـا الناطوري فلم تدخل عليه تلـك الحركات المفهومة لديه، والتى لم تكن مفهومة بالنسـبة لـي، زادت وتيرتها عندما راح يهز رأسـه، فترجرج لغده، صعودًا وهبوطًا... تلك الحالة لم تقف عند هذا الحد، بل تصاعد الأمر، وبدأت أفقد السـيطرة على جسـدي، ليصبح كل شـيء بلا رباط أمان، جاهدت كثيرًا كي أحافظ على بعض الاتزان الذي به أحافظ على بعض الأربطة؟ وهذا لم يتحقق، فسرعان ما شعرت بسخونة تنساب على فخذي، فتركت كل عوامل الاتزان، وأمسكت بالشيء الذي بينهما؟ وقتها كانت هناك همسـات تتبادل بين الكبير والخفير، وبين همسـة وأختها كان الخفير يشـير بإصبعه نحونا، كأنه يصف طريقًا لتائه؟ كانا يدرسان شجرة العائلة لكل منا؟ سرعان ما تم فض حالة الاشتباك؟ بين فم الخفير

وأذن الكبير، بتنحية الكبير للخفير وإبعاده عن طريقه بواسطة الخيزران التي جعلته يتراجع ويلتصق بالجدار، وراح بعينيه الزرقاوين يحتسي من وجوهنا بعض الملامح التي تؤكد له صدق ما همس به الخفير؟ وكأن البعيد قد غم عليه الأمر، فلجأ إلى الخفير، الذي تقدم منا، وتشبث بوجوهنا برهة، بعدها أشار إلى الناطوري:

- ده من الناطورية.

هز الكبير رأسه، فتحول الخفير إلى:

- وده من القرارية

احتقن وجهه، فظهر كالذي لدغه ثعبان وقال:

- وإيه اللي لم الشامي على المغربي!!

ولما لم يأته الرد المقنع من الخفير، تحرك حتى وقف قبالتنا، فكنا وجهًا لوجه معه، لدرجة أن صهدًا كان يصلنا من فمه، وهو ينفخ ويفش، سرعان ما دق قلبي ويده تمتد لتقبض على يد الناطوري لألمحها وهي تختفي تمامًا بين كلوة يده اللحيمة، هي آهة واحدة أطلقها ثم عقد لسانه وحافظ على عدم ظهور أي تعبير يشي بالألم، كثيرًا ما قلت لنفسي، لو قدر وكنت مكانه هل كنت سأثبت، وهل سيكون صمودي هو نفس صموده؟ دائمًا أقول إن لكل إنسان طينته التي خرج منها، وطينتي التي منها تكونت كانت ستدفع بي إلى السقوط، مغشيًا على، لو كانت تلك القبضة قد طوقت يدي؟

أزعجه كثيرًا ذلك الثبات الذي كان فيه، ولإحداث خلخلة ما في نفس الناطـوري، خفف من وطـأة القبضة، وعاد وقضم بقوة أكبر، وفتح عينيه يراقـب أي تغيير يطرأ على وجه الصغير، أو حتى أي احتقان يولد على أذنيه؟ هذا لم يحدث؟ ولأن هذا لم يحدث، فقد ارتعش قلبي، وتحركت أشـياء كثيرة كانت في ذمة الذاكرة، لتبعـث من جديد، بها تتعلق نكهة اللحظة وسـخونة الحدث، أشياء لم تثبت نفسها بسبب حركته نحونا، كان لا بد من الكف عن السرحان، ومراقبة ما سوف يفعله معنا؟ وجدته يمر على وجهي فلا يتوقف، وعند وجه الناطوري، سـكنت نظراته على العين التي لم ترمش جفونها، وسأله:

- أنت واد مين من الناطورية؟
- صابر الناطوري؟

الاسم كان كالحجر الذي سقط من مكان شاهق، فسقط على رأسه، فتفتت لحم وجهه إلى قطع صغيرة، ليأخذ لونًا «ويجيب» لونًا، وفي نهاية تلك الرحلة المقلقة، اسـتقر فيه السـواد فلوي عنقه، ومال على مكتبه ودق عليـه بقبضتـه، فاهتز التليفون، فرأيت عمامـة العمدة، تقع تحت قدمي الكبير يوم أن فارق التليفون دواره، مصحوبًا بزفة لم تعرفها البلد لا من قبل ولا من بعد، كانت البنات اللاتي حضرن من عزبة الطرح في أحسـن حـال، مجليات الوجـوه، كل واحدة كانت تحـل من فوق حبل المشنقة، يومها قال الجالسون فوق المصاطب: هكذا هي الدنيا تعطي لكل واحد رقصة؟

وكان الكبيـر مازال فـي الحلبة يكمل رقصته التـي لم تكن قد قدر لهـا الانتهاء، بوجه راحـت تتقافز فوقه شـياطين الغضب، التي جعلت لسانه يتحرك ويقول:

- يعني أنت واد القط، وود دندش؟

قالهـا و كور وجهه، وزام زومة، جعلت الكبير يجفل ويقول لنا: غور أنت وهو.

(4)

(الربع)

حكاية لها العجب

رغم الحركة الدؤوب، فما زال الصبح يحبو، وما زالت لحظات اليوم تنساب داخلي، معها الذكريات، وأنا أعبر البيوت والوجوه المردومة بآثار ليل صيفي، يصبغها بمسحة من التعب، فتبدو كأنها كائنات هشة، يسهل كسرها، بالطبع أنا غير هذه الوجوه، لسبب بسيط، وهو أنني ابن بنت الناطوري.

أحتاج للجد هاشم ـ في هذا اليوم ـ الجالس الآن في مقهى «تحية»، يرتاح فيه بعد الزيارة السنوية للسوق، يشق ريقه بطبق النابت، ثم يحبس بكوب شاي ثقيل، يصر على أن يضع شايًا ناشفًا فيه، أعرف أنني سأدخل عليه، حيث مكانه في آخر المقهى، جالسًا ومعه «الربع» بطاقيته المخرمة والمحبوكة على رأسه.

ما زلت أذكر أول مرة رأيت فيها الربع، حدث بالمصادفة، عقب زيارة الجد هاشم للسوق عندما كنت برفقته.

بينما نجلس أنا والجد هاشم تقدمت تحية منا بجسدها المحافظ علـى عصارة الحياة، العيون كانت تلاحقهـا، كل واحد يتمنى كلمة أو نظـرة، دائمًا أنال منها الكثير، بعـد أن رحبت بالرجل العجوز كما يروق لها أن تناديه، تسلمتني بسلام يشبه سلام الرجال، قالت:

ـ أهلًا بريحة الحبايب.

قالتها ومضت إلى النصبة، بينما الجد هاشم يرمق مؤخرتها، كانت ابتسـامة محـدودة المعالم تناوش شـفتيه اللتين يتبـادل وضعهما بين قواطعه، في تلك اللحظات، رأيت رجلًا يقبل علينا بوجه مشرق، وسط دوي ارتطام قطع الدومينو بأسـطح الطـاولات، والكلمات المتناثرة من أفواه اللاعبين:

دش

دبش

قفلة

لـم يشعر به الجد إلا عندما رمى بظله على الطاولة، ليستقر الرأس عليهـا، عرفـه، فرفع وجهه المغلق بالضبـة والمفتاح، ثم هوى بقبضة يده على السطح فاهتز، لتنبعج رأس الربع، الجد هاشم زاد من إغلاق

وجهـه، وكأن تأثيـر مؤخـرة تحية، أصبحت كعطر رخيص لا يسـتمر طويلًا، فقط ينتظر هزة ريح، فيطير... قلت قد تكون السحنة الموشومة بالحفر الدالة على جدري قديم، من تلك السحن التي تبعد الخميرة عن الدار، أُكد التصور، بطريقة ترحيب الجد هاشم، والتي لـم تتجاوز هـزة من رأسـه، كأنه يقول له «شـرفت»، فعلها بكل بـرود، وبطريقة لـم أعهدها منه.

الربع سأله:

- إيه مالك؟!
- مفيش.
- أمال عامل زي اللي مات له ميت.

لـم يرد، وضاعف مـن وضع الترابيس، حتـى أن وجهه تغير فأصبح معـدوم الملامح تحـت ضراوة جـذوة الحزن، الوضـع كاد يجعل الربع يطلب من الأرض أن تنشـق لتبتلعه، لولا صوت الجد الذي خرج طالبًا له شايًا، وصل صوت الجد لتحية فانتبهت لوجوده، وأقبلت بوجه باسم:

- والله سلامات يا ربع.
- مصير الحي يتلاقى.
- قلنا أنك خلاص نسيت.

يترك وجهها المحفوف، وما به من لمعة من أثر الدهان، ويحطه على الجد ويقول:

- ومين يقدر ينسى حبايبه.

وضحك...

من جراء تلك الضحكة تنفجر على لسان الجد طاقة غضب كامنة، كان ينقصها الإشارة، لتعلن عن نفسها.

- وليك نفس تفشخ في ضبك؟

- إيه مالك؟

قالها وهو يشوح بيده، فزعق فيه الجد:

- ملة لما تخذق ضلوعك.

جملة جعلت الربع، يزمجر، لكنه لم يرد عليه، فهو مهما قال هناك حد لا بد أن يقف عنده، فللجد مكانته المستمدة من سنين طويلة أفناها في تعليم أبناء البلد، صحيح الربع لم ينل أي قسط من التعليم، إلا إنه التصق به، بسبب ملازمته للناطوري، هكذا فسرت سكرة موقف الربع من توبيخ الجد، في نفس اليوم حينما عدت إليها وحكيت لها ما كان، والتي زادت وقالت: ده عامل زي المرة المفضوحة.

بما قالت وضعت فوق الطلسم حجرًا كبيرًا، لزحزحته قالت:

- عارف حارة الجنود؟

قلت لها: عارفها.

قالت: فاكر العجوز اللي كنا بنزورها هناك؟

قلت: فاكر

قالت إنها أم الربع.

اعتـادت أمي أن تصحبني معها إذا ما خبزت كعك العيد، أو حلت مناسـبة تسـتوجب توزيع الصدقات. ومـن بين تلك الـدور التى كانت تقصدها بيتًا يسد حارة الجنود، خبطات قليلة كانت كفيلة بلفت انتباه العجوز، وما أن تفتح الباب حتى توجه نظرها إلى اتجاه غير معلوم، ويدها ممدودة، سرعان ما تنام في يد أمي، لتهمس:

- مين؟
- أنا يا خالة.
- سكرة؟

تعرفها من نبرات صوتها.

- أيوه يا خالة.
- عز مين شافك يا بتي.

ثم تميل بوجهها ذات اليمين وذات الشمال، كأنها تبحث عن شيء.

- هو حسين معاكي؟

تلتقـط يدي، فتلثم ظهرها، وتسـحبني معها إلى الكنبة المفروشـة بحـرام قديـم، أكلت الأيـام زهوته، ثـم تنحرف جهة اليمين، فتسـحب الوابور، القابع على ماجور لم يعد يغسـل ولم يكو على النار منذ زمن، اكتفى بأن يكون مطية للوابور، تقوم أمي إلى الطاقة المنخفضة، فتفتحها بمفتـاح دائمًا يكون في شـق بجوار الطاقة، وبعد أخـذ واجب الضيافة، تقول أمي:

- حسين يا خالة؟

تدير إلى وجهًا يفقد سماته تحت وطأة التجاعيد وتقول:

- مش تعقل يا ولدي.
- وأمتى يا خالة المعفرت يعقل.
- بكره يكبر ويبقى سيد الناس يا أستاذة.

اعتادت سكرة في كل مرة تغليف الزيارة بحجة معقولة، مرة بسبب عيني المطروفة، ومرة بسبب التهاب في سقف حلقي، وفي المرة الأخيرة قالـت إنني وقعت علي ظهـري، أثناء لعب الكرة، ضحكت، فبان فمها الأدرد وقالت:

- بسيطة.

وطلبت من سكرة أن تفتح الطاقة مرة ثانية، وتقول:

- عندك برطمان زبد، شيفاه؟

- أيوه.

- طيب هاتيه.

أخـذت منه مقدار ملعقة، وطلبت منهـا أن تضعها في طبق، وتضع الطبق فوق النار لتفكها، فعلت سكرة، ما طُلب منها، فأدرتُ لها ظهري، فراحتْ تدلكه بالزبد السايح، ولما صرختُ، قالت إنها علامة دالة على زوال الألـم. فمـدت أمي يدها، ودسـت ما تقبض عليه فـي يد أم الربع، فتغير وجهها، ونطق برفض ما قامت به أمي.

- بتشتميني كده يا بت الحج.

تقول، فترد أمي:

- ما عاش ولا كان اللي يدوس لك على طرف.

- أمال اللي بتعمليه ده تسميه إيه؟

- دي حاجة بسيطة لزوم الزبد.

- عارفة أنا عاوزة منك إيه؟

- إيه؟

- تسامحي الربع.

ولما لـم ترد سكرة، قالت:

- ده برضو الربع اللي كان مستعد يموت يوم فرحك.

زاد صمت سكرة، فقالت أم الربع لتخفيف الحزن الذي ران على وجه سكرة:

- لازم تيجي يا حسين تلات تيام ورا بعض علشان تخف.

في اليوم الثاني لتلك الزيارة، كانت سكرة تشارك النسوة في تغسيلها وأخذ العزاء فيها.

ظل الربع بعد حادث المقهى، وكلام الجد هاشم، يمثل لي لغزًا كبيرًا، حتى جاء اليوم الذي ولج فيه المقهى ولم يقبل على طاولتنا، ظل في مكانه، شرب كوب الشاى، وحينما أخرج علبة سجائره، وجدها خاوية، قبض على الصندوق الفارغ، ورماه، وقام استأذنت من الجد هاشم، وتبعته، وجدته أمام دكان عبد القادر، يشرع في إشعال لفافة من علبة السجائر، وكأنه فطن إلى ما أريده، فضيق خطوته، فلحقت به، ومن دون أي مقدمات قال لي:

- كنت معاه.
- صحيح كنت معاه؟
- أيوه.
- فين؟
- في يوم السوق، تحت الشجرة.
- يعني شفته وهو...
- شفته ومشفتوش.

حيـرة، وما أصعبهـا من حيرة، أدخلني فيها دون قصد منه، صحيح أننى قررت بعد جملته الأخيرة أن أقوم وأتركه، وأكتفي بما سمعت، هكذا أردت أن أوهمـه بذلـك، لكن كان هناك حافز ينمـو داخلي يقول لي إنه يملك الكثير، الذي يجب عليَّ اكتشافه لتكتمل الرؤية أمام عيني. من أجل ذلك، شحنت نفسي بالصبر، واستنفرت كل حواسي، وطلبت منه أن يكون هادئًا، حتى يتثنى لنا الوقوف على الحقيقة.

وكانت المفاجأة، خرج صوته محملًا بحزن السنين الماضية:

(كنا حوله في قهوة أبو صبرة، القريبة من السـوق نأخذ الاصتباحية، وبينما نحن جلوس وفد علينا نفر من ناس البلد، كانوا مزيجًا من تجار البهائم والسماسـرة والعساسـين، كانت وجوههم عليهـا غضب الله، سـحبوا بعض الكراسي وجلسوا، استغربنا وجودهم، فالوقت كان وقت عمل وبيع وشراء، فطن هو إلى أن في الأمر أمرًا فقال: ما لكم؟

قالوا: منعونا.

فسألهم: مين؟

قالوا: الأغراب.

فوبخهم بأقوال لا أذكرهـا الآن، لكن صدقني، كانت كلمات كطلق الرصـاص، جعلت أحدهـم، يتطوع ويقول إن شـوكتهم قويـت، بعد أن سـيطروا على الشـطر الثاني من السـوق، ولم يكتفوا بذلـك بل أطلقوا نساءهم، فأصبحن يعملن في كل شيء: الدلالة، الحياكة، الخبيز، وأشياء

أخـرى يعلمها الفلاتية من أهل البلد... وفـوق هذا وذاك يجلبن أدوات الزينة للنساء، هن يقبضن المال، وأهل البلد لهم ليلة تراق فيها القوى، فإذا ما طلعت الشمس، كانوا هم نيامًا. وذكره بالعراك الذي نشب بينهم والتي تكسـرت فيها الهراوات، وتساقطت فيها العمائم، وبعد كل هذا، لم ينفذ إلا كلام عظماء الناحية، والذين قالوا إن لنا المال تعويض ولهم الدور القريبة، منعًا للمشاكل. الرجل الذي تكلم كان يهرب بعينيه بعيدًا، خشـية أن يطاله غضب الناطوري، لم يكن مستريحًا لكل ما قيل، لكنه تركه ليخرج كل ما بداخله، واكتفى بترقب نهاية لكلامه وهو يضع ذقنه على مقبض العكاز، المغروز في أرضية المقهى المنداة بالماء (كان لا يقاطع، يحب أن يسـمع آخر ما لدى الواحـد، حتى إذا ما فرغت بطارية الشحن، كان يأتي بالنهاية).

يومها قالها: ياللا بينا

شق الجموع الساكنة بيدين فولاذيتين، واتخذ طريق السوق. كان يومًا صعبًا، ونحن نسـير، تحركت بداخلي ذكريات بعيدة، فأسلمت نفسي لها، ليس بمقدوري أن أدير ظهري عن ماضٍ عشـته، والذي هو بحكم العادة ماض لحاضر أعيش فيه، وأنا يا ولدي كنت ترسًا صغيرًا في عجلة دارت وقتًا في أرض موحلة، ولما خرجت سارت في أرض رملية، وها هي تسـير في أرض مزيج مـن الاثنتين، يا ليتني بقيت طفـلًا، يقطع طريق كوبـري البواح، قادمًا من أرض الكلأ، وجهه تنديه الدماء، المنسـابة من شج في مقدمة رأسه).

يومهـا، أولاد الحـلال كتمـوا لـه الجرح بتـراب ناعم، وبينمـا بكاؤه يتواصل، اقترب منه الناطوري، وهو فوق حمارته، كان في طريقه لمعاينة بهيمـة يريد شـراءها، أشـار إليـه، كان كل منهما في جانـب من جانبي الترعة، سأله عن سبب بكائه، فقال له إن الغنامة ضربوه.

سأله: واد مين؟

قال: واد زبيدة.

هز الناطوري رأسه وقال:

- دا أنت ولدنا.

(صدقني لا أسـتطيع نسـيانه وهو يضع يده علـى عنقي، وبالأخرى يقبض على شومته، المنتهية بصامولة مكسوة بجلد ذيل عجل، أخبرته أنني أحمل لهم الماء من بئر مريم البعيدة عدة مرات يوميًا، وهم من بلاد بعيدة يأتون البلد في نهاية كل موسم حينما تكون أرض البلد مكشوفة، يدورون على البيوت يجمعون الأغنام والماعز، المشفوطة البطون، تظل معهـم، لا يقدمـون لها إلا المـاء بالليل، وبالنهار هي فـي الخلاء تأكل مـن عشـب الأرض الخالية، وإذا ما هجـم الليل، سـيقت القطعان إلى بيـت في طرف البلد، وشـرع نفـر منهم في حلب النعـاج، يخزن اللبن في طسـوت، ويبيعونه للبان، وبالليل يقصدون حارة «النقورة» يشـربون المعسـل المخلوط بالحشيش، وفي نهاية الجلسـة، يغيبون في غرف جانبية برفقة بنات من بنات النقورة. كان يسمع ويهز رأسه، وعندما قلت

إن الغنـم غنيمة، قال: صدقت. ولما وصلنـا، وقفنا تحت نخلة، تحتها البرمة المملوءة بالماء، اتجه إليها وأراح زقلته عليها وقال: من عندنا؟

قلت: أيوه.

فطـوح الزقلـة، وبضربة واحدة هشـم البرمة واندلق المـاء وغاب في الشقوق، هذه الفعلة كانت كافية لتحريك الغنامة، فأقبل أحدهم، ينوي الهجوم، فتلقفه الناطوري بضربة فسقط على الأرض عند موطئ قدميه، كجذع نخلة (مخوخ)، تلك الضربة جعلت الباقين الذين كانوا يتبعونه، يقدمون قدمًا ويؤخرون أخرى، ولتحجيمهم، داس بقدمه على يد المفرود على الأرض، فتأوه، فسكنوا، وقال لهم: هذا حق الصغير، أما عقاب من يتطاول على ابن البلدة، فلا يستحق إلا الرحيل.

زعق أحدهم: في حكم مين؟

قال: في شرع الناطوري.

كان لزاما عليَّ أن أتخلص من الذكريات، ومن كل الهواجس الملحة، وأن أكون في كامل يقظتي، خشية الابتعاد عن المشهد الذي طال انتظارنا لـه، يومها لم أشـاهد إلا لمعة العيـون الطالة من حدقـات مفتوحة عن آخرها، لبشر تركوا بضاعتهم وكذلك الزبائن كفوا عن التقليب في أكوام البصل، والكرنب، الهدوم القديمة، وأنا لم أكن بحاجة يومها لأي إنسان يقنعني بمعسـول الكلام، يقول لي إنني مقبل على مشـاهدة لحظات، سوف تؤرخ في عقول من يراها ومن يتلقاها ذات يوم.

صدقني كنت مسكونًا بأكثر من هذا، ولم لا وأنا عاصرته ورأيت الطريقة التي بها طرد الغنامة، وجعل خير البلد لا ينتفع به إلا أبناؤها، ومن أجل أن ينالني شرف الرؤية، صممت أن أكون شاهد عيان، رحت أشق الصفوف حتى وصلت إلى المقدمة وأصبحت قريبًا منه.

أتذكر أنني اندفعت من خلال البوابة الحديدية العتيقة، ولم أتوقف إلا تحت الشجرة العجوز، تحمّلت نظرات بدأت تصب عليَّ نيرانها، العيون كلها كانت تسكن سحنًا شقراء، أجسادهم كانت تمر جيئة وذهابًا تريد التحرش به، وهي تقول «شكل للبيع»، أنا لم أتفوه بكلمة، حتى من كان يمر عليَّ ويلقي السلام كنت أكتفي بهز رأسي، متجنبًا الكلام حتى لا ترمش عيناي، هو اكتشف وجودي فرفع وجهه، وطلب مني طبق النابت، انصعت لأمره، وكان خروجي صعبًا للغاية، هو من ضن عليَّ بمتابعة ما جرى، خرجت ولم أدخل.

أسكتته نوبة حزن شفيف...

- وبعدين؟

قلت له، فرد:

- ولا قبلين؟

قالها وهو يجاهد تشنجات بدأت تهز جسده، ورفع يده جعلها تحت الطقية، وراح «يهرش» بعصبية، كمن يريد محو كتابات قبيحة مدونة،

طلبت منه أن يتماسك، فقال لي إنه لا يستطيع والناس هنا تأخذ منه موقفًا عدائيًا، لا مبرر له.

- عندهم كل الحق مادام هاشم قدام عنيهم بيعمل كده.

قال كلامًا كثيرًا، خرج مشوهًا بسبب عصبيته وشهقاته، نهايتها كانت مبتورة بسبب محاولاته لاسترداد أنفاسه.

في تلك اللحظات أيقنت أنني أمام شخصية قوية من الخارج هكذا يبدو للعيان، أما من الداخل فهو هش وطري، شخص يختلف عن الرجل الذي تلاحقه العيال وقذفهم إياه بفوارغ العلب وبألفاظ مؤذية، تصب كلها في معين رجولته، يهدرون مقوماتها، بإيعاز من الجد هاشم.

يلمحونه، فيقولون: يا ربع يا منجوس رجولتك راحت فين.

لم يكن أمامي إلا أن أطمئن نفسه الجزعة والتي لم تمتثل لكلماتي، بل جرته لحافت الانهيار، مما جعله يرمي بالطاقية المخرمة، وبأصابعه راح ينهش صلعته، الموشومة بجرحين، وكالأجرب راح يهرش.

لاحظت أن المنطقة التي كانت تأكله، كانت الجرح الثاني، المتمدد على سطح الرأس.

قلت له: ده هو الجرح؟

قال: أيوه.

- والتاني؟

قال حكايته عند سكرة.

تركني، وقام، ألقى بنفسه في سيارة أجرة ذاهبة إلى المركز.

عدت إلى البيت وأنا أكثر حيرة، عدت بعد أن عثرت على بئر، ولما دنـوت منه وجدته عكرًا، فقط كل ما سـعدت به نتف صغيرة من حكايا الزمن الجميل، لم تبل ريقي، فارقت فمه الفاقد معظم أسنانه.

أثناء رجوعي ترحمت على الوضوح الذي إن وجد فهو نعمة وإن فقد فتوقع الأسوأ المتواري خلف الأبواب المغلقة، الذي لو تكشّف فيا ويل من ترتطم به قدمه صدفة.

وأنا أقترب من التصليبة، رحت أهتف... ياه منها لحظات، عشـتها، والشـرود رفيـق درب، فكلماتـه الأخيرة والتـي كانت نتيجـة لفضولي، أدخلتني غرفة معتمة، كل حوائطها سد، لا أثر لضوء، حتى أنني سرت وأنا بالكاد أرى موطئ قدمي قدمي. خشيت أن أترك شاطئ الحب الواقف عليه، وأبحر مع الجموع الغفيرة المضمرة الكره، المستمد شرعيته من أقاويل، رُوجت لها ألسـن لا تجيد إلا طمس كل ما هو جميل وواضح، حتى وإن كان قد تم الزج بإحدى نساء حارة «النقورة» لسبك الخطة.

لا أنكـر أنني حتى الآن أميل إلـى تصديق بعض الحكايا، والبعض الآخر لا يتفق مع القلب الذي يضمر حبًا للناطوري.

قبـل وصولـي للبيت، بعـد حديثي معـه، توصلت إلى أن الجسـد المتحـول إلى قطعـة (جيلي) لمجرد تردد الاسـم، لا يوصف بالخبث.

وجنبًـا إلى جنب كان هناك الـرأي الآخر، والقائل إنـه حويط كونه ألقى الكـرة في ملعب سـكرة. وفور أن دخلت البيت قلت لسـكرة إن الربع باح بنصف حكاية، وقال: الباقي عند سكرة.

قالت: قال إيه؟

أخبرتهـا، ولما انتهيت، لم تـرد، فراقبتها، وجـدت وجهها قد امتقع غضبًا، كأنها تقول لي إنني خالفت طريقًا شـقته لي، لا بد أن يكون في أرض لا تقـل الربـع ولا يتواجد فيها حتى ولو حـدث وتدخلت الصدفة وجمعتني معه في مكان واحد.

يومها قلت لها: ولو حصل في بيت الله؟

قالت: أتركه.

غضبت، فقالت بلهجة الواعظ: بوجوده هتطولكم نجاسته...

قلـت لهـا إن ما حدث حـدث، وهو بمحـض إرادته رفـع اللثام عن النصـف الأول، والنصـف الآخر كل ما أريده، طـال وقوفي أمامها، قلت لا بد من لغة مشوبة بالتهديد، فأخبرتها أنها إذا لم تتكلم، فليس أمامي إلا الناس، وبمقدوري شراء أحدهم بكوب شاي أو سيجارة.

قالت بتحد: جرب.

قلت: بس أنا عاوزها منك.

قالت: الكلام عندي خلص.

أيقنت أنها لن تتكلم، فكان لا بد أن أترك المكان، خرجت، وشيء ما بداخلي يحرضني على إعلان الثورة، وتنفيذ ما وعدت به.

لم يكن انزلاقي وخروجي كافيًا لكف خيول الفكر، ولا حتى خفض حدتها، والذي حدث كان عكس ذلك.

فور استقبال الوجوه لي، وأنا أتبعه أينما حط، احتضنتني وانسابت الحكايات، كانت غير مرتبة، كلها في فلكه تدور.

على ناصية أحد الشوارع، سمعت ما قاله رجل لجليسه.

- هو ده الربع؟
- أيوه.
- وماله كبر!
- حكم الزمن.
- معاه عيال؟
- يجيبها منين!
- يعني أنت متأكد أنه هو؟
- هو أنا غريب عنه، هو بشحمه ولحمه، دا هو ساكن هنا(أشار إلى رأسه) من ساعة اليوم إياه.

لــم يصدقه الآخـر إلا بعدما حلف بكل أمواتـه، وبعمائم الجدود إن ما شـافه لـم يكن من بنـات أفكاره، ولكنـه حدث في اليوم الكابوسـي وبالتحديد في تلك اللحظات التي غادر فيها الربع البوابة. ولأنه ليس من عادته أن يغادر السوق في مثل هذا الوقت، تبعه، فوجده يقف عند بائع الفلافل، أسرّ له ببعض الكلمات، قابلها الرجل بالابتسام مشيرًا بسبابته إلى عينيه، شـكره الربع ومضى بسـرعة ملفتة للنظـر، كمن وراءه ميعاد أزف، فظـل الرجل يتابعه كظله، حتى وصـل إلى قهوة رفاعي (في ذلك الزمن كانت المصدر الوحيد لإمداد أصحاب الكيف بالأفيون والحشيش وأشياء أخرى تبدأ بالبرشام وتنتهي بالنسوان) ناول الربع رفاعى مالًا، فناوله لفافـة في حجم عقلـة الإصبع، فحصها ثم مرر اللفافة تحت منخاريه، وابتسـم لرفاعـي وتركه وقفـل راجعًا، في طريق آخر أوصله إلى السـوق الذي لم يدخله واتجه إلى الشطر الثاني.

سكت الرجل، فسأله جليسه:

- وبعدين؟
- ولا قبلين أتلم على وحدة نجسة.

وبصق على الأرض، فانتبهت إلى أن الربع اقترب من باب المقهى، فانفصلت عن الرجلين ولحقت به، سـحبت كرسـي وجلست بالقرب من بعض الشـباب، كان الربع قريبًا منهم يرتشـف كوب الشاي الثقيل، التفت إليه أحدهم وقال:

- يا عم الربع.

قال: أيوه.

قالوا: قلنا حاجة عن حياتك.

ضحك وأخرج عود ثقاب، حكه، فاشتعل، ثم نفخ فيه فخبت ناره، واستقرت الدهشة على وجوههم، فأعادوا السؤال عليه، فوصفهم بأنهم أبناء زمن مقلوب، ثم قال:

- حياتي زي عود الكبريت اللي ناره قصيرة.

ثم طأطأ رأسه ودفن العود في الأرض وعندما واجههم لم يستطع صد نظراتهم المسلطة عليه، فهب واقفًا وهو يقول:

- يا ريتها تتحرق بجاز، حياة... هيه فين المدعوكة دي؟!

انصرف عنه الشباب، فجلست بجواره، وطلبت منه الحكاية.

- عاوز من الحكاية إيه؟

سأل هو، فرددت أنا:

- يمكن تفيد.

- على العموم دي حكاية قديمة.

وفتح لي قلبه، قال الحكاية التي كثيرًا ما رددتها نفسي في لحظات ميلي للشاطئ الواقف عليه الجد هاشم.

الآن أرتبهـا، وابتعد بها بعيدًا، مسـتمتعًا بالتصور الذي رسـمته فور سماعها من الجد هاشم.

سكرة وسط جمع غفير من النساء، في كامل زينتها، والبنات حولها بالزغاريد تصيح، وبعض الجدعان يمسكون بالمصابيح، وزهيرة ـ التي جهـزت سـكرة لهذا اليـوم ـ ترش الملـح، وعلى إيقـاع الكفوف راحت الأغاني تتردد من أفواه البنات.

يا عروسة يا أم غالي

انجلي ولا تبالي[1]

سـكرة كانت في شـغل عـن تلك الطقـوس، تقوم باسـترجاع صورة عريسها، وكلامه الذي دخل في رأس الناطوري.

قالت سكرة عنه إنه كان غريبًا ساقته لقمة العيش للعمل في مدرسة البلدة.

وسـط الصخـب يبـرز ابن العـم كعفريـت العلبـة، بزقلتـه اعترض الموكب، وقالها صريحة:

- محدش هياخدها غيري.

دوت الكلمات في براح الشارع، فسمعها كل من في الموكب، فثبتوا ينتظـرون رد فعـل الناطوري، المعـروف عنه الصراحة وأنـه يقول للأعور صفته في عينه، إذا ما حاد عن طريق الأسـلاف. فلما طال صمته، تجرأ ابـن العم، دق زقلتـه في الأرض وكرر كلامه، تقبضـت ملامح الناطوري

(١) من التراث الشعبي

وصـرخ فيـه: تأدب؟ صاحـب الزقلة قال إنـه طبقًا للعـرف فهو يحق له أخذها من فوق ظهر الفرس، ألجمته الجملة، فسـربت سكرة نظرة إلى الناطوري فوجدته يطرق برأسه إلى الأرض، قالت لنفسها ليس بيده اليوم حيلة، وما عليه إلا الرضوخ لعرف شارك في المحافظة عليه. وسط اللغط الذي بدأ يحتل الألسن، دخل في حالة من الصمت مكتفيًا بتطويق سكرة بعينين يتسكع فيهما الدمع، راقب وجهها المحتقن بسخونة الخوف، الذي سـرب العرق من مسام وجهها فشوّه زينتها، جاعلًا خطوطًا سوداء تنسـاب، لتسـكن الوجنتين. وفجأة برقت له الكلمات واندفع كالغريق المتعلق بقشـة، يطلب منها أن تنتشـله من خضم أمواج متعاركة، تريد سحبه إلى هوة سحيقة.

قالها بدون توقع ودون سابق تجربة:

- رأيها.
- ده مش من عرفنا!
- بس ده في عرف خالق الخلق.
- وعرفك.
- في الحتة دي مينفعش.

همهمـات وكلمات خرجت لا أول لهـا ولا آخر، تريد إخضاعه لرأي العـرف الذي هو رأي الجماعـة، تركهم حتى جفت آبـار الكلام، فزعق فيهم متسـائلًا كيف حـال أحدهم إذا ما أجبر علـى أكل لقمة لا تروق

له؟ سـمعت سـكرة كلامه فتوحدت معه، شـعرت أنها الأثيرة لديه ومن أجلها يخوض معركة يبدو من الوهلة الأولى أن النصر لن يكون حليفه، لكن الزغاريد التي دوت من أسطح البيوت، ومن النسوة اللاتي حولها، مقدمات فرحة جعلت الوجوه المعقودة تفلك كل خيام التردد وتقول:

– على بركة الله.

لم يقتنع صاحب الزقلة، فما كان منه إلا أن طوح زقلته، وجعلها في اتجاه رأس الناطوري، وفي لحظة سـقوطها قفـز الربع وكان بين الاثنين وتلقي الضربة.

***

رغم الحادثة وشجاعة الربع واستعداده للموت، إلا أن جزر الشك ما زالت باقية حتى الآن على حالها في قلب سكرة التي تطلق عليه لقب هباب البرك وبالنسبة للجد هاشم هو كذلك، بل أصبح اسم الربع مصدر قلق لهما لتردده علي لساني، بغية غمر الجزر بمياه المحبة.

أنا لا أسـتطيع أن أكون بكامل كياني معه، ولا أستطيع نسيان المرأة «النقوريـة» التي تقتـرن به، اعترف أن أمر المـرأة يحيرني، فهم لا يدرون عنها أي شيء، امرأة عادية، قامت بدورها باقتدار، ثم توارت.

حتـى الآن هي مجـرد حكايات، ومكانها ليس هنا، فها هي الزحمة تلوح، والتصليبة ترحب بي وشمس الصباح تغمرها.

(5)

صاحب الشيلة

العم سليم

للصبح حضوره في براح التصليبة، حيث الوجوه الكثيرة المغسولة بشمس الصباح، والحركة التي لا تهدأ أبدًا، وطغيان فكرة الركض خلف أشـخاص بعينهم.أحاول بكل قـواي الخروج من تلك الدائـرة اللعينة، السـابح فيها فكري منذ لحظـات وصول دبيب خطوات قدمي سـكرة إلـى هنـا، عيون كثيرة كانـت بمقدورها انتشـالي من البحـر المتلاعبة أمواجه بزورقي، في السـابق كنت أول من يحضر إلى المكان، أظل في مكانـى بعيـدًا عن الواقفين، فـي انتظار ياقوتة، فإذا مـا جاءت، أتحرك، وأدخل نفس السيارة التي دخلتها، أما الآن، عيناي تتعلقان بعيون كثيرة، لا تملـك نفس السـحر، ومهما فعلت، فلن أقع أسـير عينين من تلك العيون المتعلقة بانحناءة الطريق التي تبدأ من مكان سـبيل شـاكر إلى جدار النقطة، مكان انتظار السيارات، وجوه أعرفها، هاهى جيهان بزيها

الشاذ عن الجماعة، تقف وحيدة، لا تقيم أي علاقة من العلاقات بينها وبين من يماثلنها من البنات، ياقوتة هي الوحيدة التي كانت تدنو منها، هـي الآن غيـر موجـودة، لكنـي أتخيلها، بعودهـا المائل إلـى الامتلاء، وابتسـامتها الجميلة تسـتقر فوق شـفتين ناضجتين قطفتا من شجرة فراولـة، جيهان تقول دائمًا عنها إنها تشـبه الكلبـة التي يلاحقها كلاب السـكك، أمي كانـت تنهرها، وجيهان لا تردعهـا الكلمات، وفي نفس الوقـت مهما بذلت من جهد لإخفاء غيرتهـا، كانت تفضحها تعبيرات وجهها، وأمي تسـرد خصال ياقوتة وأسـرتها التي لم نـر منها أي عيب على مدار السـنين التي جاورونا فيها، جيهان تقول إنها (تقصد ياقوتة) غير الصورة المستقرة في العقول...

- لم؟ سؤال تقوله سكرة بغضب بين، على أثره، ينطلق لسان جيهان لإعادة حكايات قديمة عن علاقات عابرة، روج لها الشباب الذين لم يأخذوا حقًا ولا باطلًا معها، وإذا قلنا لها وما دليلك، كانت تقول:

- جوزها واحد منهم.

أقول لها إن «بدر» ليس سائقًا لكنه متعلم، يعمل على سيارته بغرض توفير سـبل عيشـة أفضل له ولياقوتـة، في النهاية لا تسـتطيع جيهان صبـرًا مـع كل قصائد المديح التي نسـبغها على ياقوتـة، وتصر على قلب المائدة بقولها:

- طبعًا ما أنت حبيب القلب.

أسـمع ولا أرد، إلا أن سـكرة تسـكتها بقولها إن العم سليم وزوجته وابنته هم من أحسن الجيران.

ياقوتة وجيهان أتيتا إلى الدنيا في شهر واحد، هي بنت عمي سليم الذي يمتهن عدة مهن: التجوال في الأسواق ليبيع الحبال والحجال التي يفتلها من ليف النخيل، والخروج في الأيام العادية بحماره، يطوف العزب البعيدة يجمع البيض، ويورده للمركز. العلاقة بين أمي والست فوقية (زوجة العم سليم)، لم تقم وزنًا للوضع الاجتماعي، بل كانت تشجعني على اصطحاب ياقوتة كل صباح، فأمسك يدها، ونخترق الرهبة، أحيانًا يقابلنا العم سـليم، فيدس في يد كل منا قرشًـا في زمـن القرش، دائمًا كنت أبدي الرفض، فيصر هو بقوله:

- ده ميجيش حاجة جنب خير جدك.

كنـت أصر في طريق الذهاب على أن نسـلك الطريق الطويل المار بحارة النقورة، وبالشطر الثاني من السوق، الطريق لم يكن يرتاده الناس، إمـا خوفًا من أصحاب الوجـوه الصفراء، وإما لأن المسـافة كبيرة، تلك الحجـة واهية، يقولهـا قليل الحيلة الذي يتشـدق بكلمات يبشـر بها بمسـتقبل تكون فيه سـلطة الأجـواد من أهل المنطقـة نافذة، فيضعون حلًا لهذا الوضع.

صغيرًا كنت أقول لياقوتة: من هنا نمشـي، رغم تربص عيال الشـق العـراة، الذيـن دائمًا يفعلونهـا أمام البيـوت، لا يقيمون وزنًا لاشـمئزاز

وجوه الشـطر الثاني، يفعلونها، ويمدون أيديهـم، يلتقطون الحصوات، فيمسـحون بها مؤخراتهم، ويقومون، وكل واحد منهم «يهرش» الشـيء الـذي بين فخذيه، يسـتحلب منه آخر قطـرات البول عيانًـا جهارًا أمام العيون، ياقوتة كانت تشيح بوجهها وتقول: حاجة تقرف.

في تلك المشـاوير، قد يتجرأ أحد العيـال العراة، ويتحرش بياقوتة، ويهز لها قضيبه، فتغلي الدماء الجارية في عروقي وأنقض عليه، أهبش وجهه بأظافري الكبيرة المتروكة لمثل هذه الظروف، وأمضي لتلاحقني شتائم من أفواه النسوة اللاتي يجلسن جلسات لا تستر، أحيانًا يطلقون كلابهم، كنت أخرج من حقيبتي قطع الحجارة المحتفظ بها لمثل هذه المواقف، أظـل أرميهم بها حتى يرتدعوا، حينما نعود تقص ياقوتة كل مـا يحدث على عم سـليم، فيضحـك، ويقوم، يربت علـى ظهري، ثم يتركني ويتجه إلى صورة جدي المعلقة في المندرة بجوار صورة المسيح والسيدة العذراء.

في إحدى المرات قال:

- الجنة ونعيمها يا حاج، صحيح يا ولاد اللي خلف ما مامتش.

مـع الأيام كبـر بداخلي الإيمان أن العم سـليم بداخله أشـياء كثيرة، كل مـا تحتاج إليه هـو أن نجعله في منطقة ذات إضـاءة عالية، وبقيت مع الأيام في انتظار هذا الشيء الذي يغريه على البوح، خصوصًا أنه ظل

لا يبرح بيته بعد حادثة السـوق لمدة شـهر، خلاله كان دائم التردد على سراي النيابة، التي كانت تسأله أسئلة كثيرة.

تقول له: كنت فين؟

يقول: في السوق.

- فين بالظبط؟
- في الحتة اللي بتخصنا.
- يعني ماشفتش؟
- مشفتش وماعرفش

مـع الأيام أصبح مثار تنـدر الرجال في قعداتهم، لدرجة أنهم أطلقوا عليه لقب «سليم ميعرفش».

سـكرة فـي تلك الأيام، كانـت معلقة بين أن تصـدق أو أن تقف منه نفـس موقفها من الربع، الجد هاشـم حاول معها، مـد لها يده وأخبرها: سليم قليل الحيلة، واللي زيه ميتزعلش منه، وذكرها باليوم الذي كادت قـواه أن تخور وهو يجري وكلب يلاحقه، هزت سـكرة رأسـها، وأفرجت عن ابتسامة، أكلت بعض حزنها، وقالت:

- يومها مقدرش يمسك نفسه وعملها على نفسه
- والناس نسيت «سليم ما عرفش» ومسكت في سليم «أبو شخة».
- زي ما يكونوا بيضحكوا على نفوسهم.

لم تؤثر الكلمات فيها، ورفضت أن تفتح الباب على مصراعيه، فقط جعلته مواربًا بالكاد لا تمر منه إلا دجاجة ضالة. ومع استمرار القطيعة، بقيت أنا في انتظار يوم تعود فيه الألفة بين البيتين، بمقتضى تلك العودة أدخل البيت، وأمد جسر التفاهم بيني وبين ياقوتة، ويبدأ شهر العسل.

طال انتظاري، واكتفيت بالنظر إلى ياقوتة وهي تكبر، بنظرات تحمل مذاق عتقته السنون التي فشلت في صنع تلك النقطة المضيئة، والتي بها أفتح الباب، مكتفيًا تحت قطيعة سكرة بإرسال النظرات المحايدة التي لا تُحمل إلا بدلالة واحدة، أرسلها عبر الفضاء الفاصل بين البيتين، لكن رؤيتي لها وهي تنضج، وشعوري بأن هذا الجسد يخصني، والذي من أجله خضت المعارك التي كثيرًا ما كانت تنتهي بعلامة في وجهي من أثر الخدوش، أو بتمزيق قميصي، أو بتعفير وجهي، كلها أشياء دفعتني إلى أن أقول لا بد من عمل شيء، لذلك كان لا بد من النضال مع سكرة لإعادة المياه إلى مجاريها، أو المحاولة مع العم سليم ليضع النقاط فوق الحروف.

في ذلك الوقت لم تغير ياقوتة من عاداتها معي، ظلت نظراتها، وطلاتها، وإيماءاتها، هي هي لم تغيرها، وكما يفعل الناس معي، حينما يقتربون مني، كانت تلقي الصباحات المضمخة بالفل والورد، فتكون قبلة لعيون تريد الارتواء من الوجه المحتقن بالدماء وبالمفاتن المتمثلة في العيون الواسعة والشفتين الصغيرتين، بعد هذا اللقاء العابر، كنت أمر بصعوبة، فور أن أقبض على وجهها، قانعًا بها، أُخزنها داخلي، ولا أدعها

تمر بسـهولة، أكثر تلك الأشـياء قربًا مني كان صوتها الهامس القريب من صوت نجاة وهي تشدو بأغانيها ذات الطابع الشجي، والقريب أيضًا من صوت أمها.

أمـي في تلك الفتـرة، كانت تقول لـي «كلما فتحـت معها موضوع العلاقـة المقطوعة»: إن كل واحد لا يهمـه إلا جرحه، يبحث عن عطار يأخد منه خلطة توصف ليه، ليداوي بيها جراحه، وأنا ـ كما قالت ـ كنت مثل من جرب وصفة بعينها ويريد تعميمها على الآخرين، وأني مع توالي الأيام عندما يمضي بي قطار العمر، سيكون الندم رفيقي.

قلت لها إن التصور بهذا الشـكل يعتمد علي النظرة الأولى المكونة مـن الصدمة ولحظتها، لم تقتنع وأضافت في وصفها لي بأن قالت إني مثل العائش في الخيال.

قلت قد يكون، لكني كنت سعيدًا بالصمت الجاثم الذي وصل إلى تعطل لغة النظرات، كما حالها الآن وهي تقبل في طريقها إلى الموقف «هنا بسبب الزواج وقيوده».

أراها من مكاني أمام دكان أبو فريج وقد تحوّلت إليها العيون، تجاهد لتتفادي النظرات، والتي قالت لي عنها: إنها تشعر وكأن قدميها مقيدتان بحجال[1] يحد من تقدمها، ذلك الوصف قدر له أن يقال في اليوم الذي استطعت فيه أن أفتح الباب على مصراعيه.

(1) قيد.

كنت أراقبها في طريق عودتها من المدرسة الثانوية الملتحقة بها في المركز، أظل خلفها وهي تقطع طريق التحرير المنتهى بموقف الأقاليم والقرى، مهمتي لا تخرج عن مراقبة جموع العيال المنقادة خلف جسدها القابض على جمره، أغلب العيال كانوا من البلاد المجاورة، وقلة منهم كانوا من سكان الشطر الثاني من السوق، وهؤلاء هم الذين كان يعنيني أمرهم، ولأن الفم هو أداة الصيد، رأيت كل واحد يعتصر داخله لينتشل منه حلو الكلام الذي يحيل الأجساد إلى قطع تشبه قطع (الجيلي)، ياقوتة كانت الكلمات تربكها، وتجعلها كالغريقة الغائصة لشوشتها في مياه متلاطمة.

وذات يوم، اشتدت عليها الهجمات، دارت بعينيها بغية البحث عن طوق نجاة، تتعلق به، وجدتني، فمددت خطواتي، والتصقت بها، ولوحت بنظراتي إلى جمع العيال ـ المتربصين بها ـ بالعواقب الوخيمة لكل من يقترب منها، فتراجع عدد منهم، ولم يبق إلا أولاد الشطر الثاني من السوق، وأيقنت أن الاشتباك قادم، واستعدادًا للمعركة، نزعت الحزام من كمر البنطلون، وبدأت أحركه في الهواء، لأبعد عن رءوسهم صور نضوجها المبكر الذي قد يكونون اختزنوه.

في الوقت الذي شعرت هي فيه أني أتهيأ للانقضاض عليهم، تعلقت بي وقالت: بلاش.

قلت: ليه؟

قالت إنها لا تريدني أن أعود إلى البيت بأي خدوش، حتى لا تطيل أمد الخصام بين الأسـرتين، بما قالت وضعتني بين المطرقة والسندان، إما أن ألقن حثالة المجتمع درسًا يظل راسخًا في رؤوسهم، أو أن أرضخ لطلبها، وأكتفي بالتهديد، مالت نفسي إلى ما طلبته مني، إلا إن أحدهم حرك قبضة يـده المضمومة جيئة وذهابًا، وكأنها تقبض على ماسـورة، غلت الدماء في رأسي، وانقضضت عليهم.

في مسـاء هذا اليوم كانت قدما العم سـليم تدوسـان عتبة البيت، ومن خلفه الست فوقية التي انكفأت على رأس سكرة وهي شبه منهارة.

زهيرة رأت العيون وهي تتلمظ بالدموع، فقالت:

- إيه يا جماعة، انتوا عوزين تخلصوا تحويشة السنين اللي فاتت، طيب خلوا شوية لبكرة.

سـكرة تغير وجهها بطريقة فجائية، أنا الوحيد من الجلوس من كان يـرى رأس الخلاف وهو يطل من جديد، مبشـرًا بعودة العلاقات إلى ما كانت عليه، كزحف النمل على حائط، رأيت تبدل ملامح أمي، انفرجت أساريرها بفعل مقولة زهيرة، لـم أندفع بتهور إلى الفرحة الشديدة، كنت أخشى من نبش الماضي بالطريقة التي تجيدها سكرة، فقد ظهرت لي مستعدة أن تلقي بالكلمات المعلقة على شفتيها، فالتفت إليها وركزت فـي عينيها، كان بهما الكثير من الحـزن، وقليل من دموع تريد التحرر،

لحظتها فقط أيقنت أن العلاقة لن تعود أبدا إلى سالف عهدها، والعجلة التي دارت لن يوقفها حتى العتاب، وما سوف يقال؟

وسط الجو المشحون لا بد من بداية للتخفيف من حدة القعدة، قررت أن أكون مفجرها، إلا أن دخول ياقوتة والتي غابت بكامل جسدها في حضن سكرة، جعلتني أتريث بعض الوقت لأعيد تشكيل الكلمات، وتشكيل الجسد الذي واجهني في جلباب بيتي، فأطلقت عيني، لأرتشف الهدوء من الوجه الصبوح، دائمًا كان وما زال يقبض على إشراقه، وقادر على وضع الناظر إليه في وضع مربك، وكل هذا يحدث لو ركزت هي في عيني الناظر إليها، وكانت البداية منها حينما قالت:

- حسين يا خالة زين الشباب، ربنا يصونه؟

الكلمات بلت ريقي، وشعرت بالخجل لأنها نظرت إلى بعد أن أنهت جملتها، ولأنها بما قالت كأنها تمحو ما استقر بداخلي، وقررت أن ألوذ بالصمت، وأمتنع عن الكلام في حضور الجميع، وسكرة هي من تطوعت بالرد عليها:

- خلاص ما دام هو كده، ماعنديش مانع إنه يقطع ودنه.

وضحكتْ، سرعان ما عادت إلى السكون، فور أن لمحت وجه العم سليم وقد تراقصت عليه الفرحة، عرفت بخبرتي أنها ستنال منها وتقلب السحنة، وما حسبته وجدته، وكالطلقة التي تصيب في مقتل كان سؤالها:

- هو أنت يا أبو ياقوتة لسه برضو متعرفش؟

انقلب الموقف، فقرأت على الوجوه وجومًا ثقيلًا، وأصبح هناك حالة من الترقب المشوب بالقلق، بسرعة ترجمت في تصرفات الحضور: زهيرة طأطأت رأسها وراحت بظفرها تحك سطح المفرش، وياقوتة زاد التصاقها بالست فوقية، والعم سليم تعمقت التجاعيد المحيطة بعينيه وفمه، فظهر لي كأنه كبر كثيرًا، وكانت اللحظات بحضورها تبشر بما سوف يحدث، لوهلة تصورت أن الأمر قد ينتهي عند هذا الحد، وتنفض الجلسة دون أن يتم الصلح، لكن نفسه العم سليم، من هدم تصوري، حدث هذا في اللحظة التي رفع فيها عينيه، مسح بهما الحائط المقابل، فعثر على مكان الصورة، خاليًا كان، فقط المسمار في مكانه، إليه أشار، وسألها:

- أمال فين؟

- ما أنت عارف ولا نسيت؟

تبادلت ياقوتة النظرات مع أمها، قاومت خجلي، وأمعنت النظر في وجهها، هالني مقدار الندم الظاهر، في تلك اللحظات وجدت نفسي أقف على حافة الغضب، وكان يجب أن أتكلم، حرضتني نفسي، جاهدت حتى أرسل تلك الحقيقة لياقوتة، هي رأت احتقان وجهي، وقرأت ما في نظراتي الفاضحة التي وجهتها لأمي، ابتسمت نصف ابتسامة، قالت لي بها «ما تزعلش»، ثم حولت وجهها إلى أمها، عرفت أنها تقول لها إن حضورهم لم يتم التحضير له، أمها لم تعبأ كثيرًا بتلك النظرات، ورأت أن تهيئ زوجها ليزيح عن نفسه ما يعرفه فقالت إن العم

سـليم كبّر صورة لجدي، وضعها في مكانهـا على الحائط، كان ينظر إليهـا كل زائـر لهـم، وأنه يصر في طلعـة كل صبـاح أن ينزلها وبخرقة من القماش، ينظفها ويعيدها لمكانها، سـكرة قامت، ولم تعقب على كلامهـا، غيابها لم يطل كثيرًا، وحينما كان معها الشـال الملوث بدمه، قربته من وجه العم سليم وقالت:

- فاكره؟

قال: أيوه.

فردته أمام عينيه وعادت وسألته:

- ولسه برضو متعرفش؟

مد يده، مسح دموعه المنهمرة، وتخلص من صمته، وتكلم.

وكان يومًا لا ينسي.

قـال إنه ترك البيت فوق كتفه حمل من الحبال والحجال، الطرقات كانت لم تحتقن برواد السوق، وكان السكوت يتناغم مع نسمات الفجر الوليد وصوت الشيخ فولي وهو يسبح ربه.

لمحه أحدهم، فقال إنه منهم، فصوب إليه الكثير من العيون، واحد منهم كان يعرفه فأشار إليه وخاطب من معه:

- إيه مش عرفينه؟! ده الخواجة.

تركوه، فأمسكت به نيران، جعلته كالجالس على الجمر، يقول: عشنا وشفنا خلوني خواجه، وهما الأغراب مش أغراب، زمن غريب، لا مخلي الماشـي ماشـي ولا الراكب راكب، صحيـح يا ولاد دنيا المسـتظل بها عريان. ظل في استغرابه من الأشياء التي راح يرسخ لها أصحاب الشطر الثاني، كانوا حسب قوله: عوذين قبل النور ما يملا المكان يغيروا وضعه، علشان لما ييجي واحد ويقول حقي، هما يقولوله «كسر حقك» يا عبيط مش عارف أني اللي سبق كل النبق».

كان فـي كلامه مرارة، وفي الطريقـة التي يقص بها خناجر تنغرز في القلوب، فلا تهمس، ويومها سـمعنا من فم العم سـليم متونًا من متون اليوم الكابوسي.

المتن الأول

ما شافه تحت الشجرة

كنت أتابع العجوز المنهمك في غسـل أكوابه، والذي راح يغمز لي بعينه، كأنه يقول لي انظر، فالتفت حيث يشير وجدت الناطوري يدخل ويتوجه إلى ظل الشجرة، يلقي زقلته، ويبرك بجوارها، والربع بجواره يدور بعينيه في كل اتجاه، يبتسـم للمتعيشـين العائديـن على حس دخول الناطـوري، لوحتُ له بيدي، فرد تحيتي، وطلبت من بائع الشـاي كوبًا، على أن يكون ثقيلًا، أشار الرجل لي وهو فرح وقال: من عينيا.

حملـت له الكوب، فشـكرني قائلًا: تترد لك فـي الأفراح يا مقدس، هـززت رأسـي وعدت لمكاني، ليشـغلني أحد الزبائـن، ولما أخذ طلبه أشار إلى الناطوري وقال:

- مش ده الناطوري؟

قلت: أيوه.

قال: هيه دي الرجالة وإلا فلا.

الرجل كنت أول مرة أراه، وبما قال أثار فضولي: فسألته:

- هو أنت تعرفه؟
- أمال.
- بس أنت مش من أهل البلد.
- صحيح
- أمال عرفته فين؟
- في الغربة.
- في الغربة؟

قلتها باستغراب، فما كان منه إلا أن قال:

- في الغربة تعرف معادن الرجال؟

وتركني ومضى لما مال على أحد الناس يريد شراء حبلا، لم أستطع متابعـة ما يجري، إلا أنني كنت أرى أصحاب الوجوه الصفراء، يروحون، ويعودون من أمامه في حركات استعراضية، وهو يقول بسكونه «يا جبل ما يهزك ريح»، وتحت سمعه وبصره رأيت الرجل الذي قال لي إني خواجة، صرخت فيه، فوقف ومددت له يدي وقلت: هات. برطم بكلمات كثيرة، وما إن سـمع سـعلة الناطوري «التي بها يقول إنه هنا» إلا ومد يده وهي قابضـة على بضاعتي، وبعدهـا لا أعرف كيف قفز الرجـل الغريب في رأسي، فنظرت في اتجاه الخروج، فعرفته من ظهره، فقلت للعجوز:

- خلي بالك؟

ولم أنتظر رده، ورحت أخوض بين بحر البشر المتلاطم، فلما وصلت إليـه، وضعت يدي على كتفه، فمال بعنقه للخلف، فلمحني وابتسـم، وقال: أنا قلت كده. من تلميحاته، ونظراته لي، عرفت أن الرجل في جعبته الكثير من الأشياء، وبسبب حمار حرن وأبدى اعتراضه لخوض الطريق، أخذ بيدي وانتحينا جانبًا بحيث نكون بمنأى عن ثورة الحيوانات، وقال:

- عاوز تعرف؟

نظرت إليه برجاء وقلت: يا ريت.

أشار إلى عينيه، بينما سيجارته مرشوقة بين شفتيه، يخرج دخانه من منخريه، وبرك شادًّا ذيل جلبابي وأسقطني بجواره وتكلم.

المتن الثاني

حكاية الغريب

قال الرجل «ملعون نسلهم إلى يوم الدين» ورمى بعقب سيجارته، فوقعت بجوار بعض القش الجاف، شم النار الساكنة فيها فاشتعل، فقام وداس على النار الوليدة ببطن حذائه وعاد وقال:

- كل اللي عوزينه برملين مازوت، وبرميل بنزين، ونجيب ولاد الصرمة القديمة وندخلهم في عيون قماين الطوب، وبعود كبريت نولع.

قال العم سليم: حيرني فقلت له:

- القلوب عند بعضها، وبعدين.

قال الغريب: صبرك

لاذ العم سليم بالسكوت، فقال الغريب إنه عاش الأيام السوداء التي عز فيها خبز الذرة المخلوط بمسحوق البامية والحلبة، وكذلك المش الأزرق الذي يقطع ذيل الفأر من ملوحته، في تلك الأيام ترحم على أشياء كانت تزور البيوت على استحياء في أوقات متباعدة، مثل اللحم الذي تمثل زيارته مناسبة تستحق احتفالًا يليق بما يحدثه من طقوس تبدأ بالتحلق حول الكانون، وملء الصدور بالبخار الخارج من الماعون، وضحك الغريب وقال: كنا بناكل على الريحة، وفي أوقات المغربية يتحلق الجميع حول الثريد والفتة، وتقبل العيون تلتهم القطع، قبل أن

تمتـد اليد، ومن العجائب أن القطع التي يتم توزيعها صغيرة لا تتجاوز حجم بلحتين، الناس تأكل، وبعد الانتهاء تقبل ظاهر وبطن اليد، وإذا ما وجدت كسرة على الأرض، مالت عليها قبلتها وجعلتها تلامس الجبهة، وتعود وتقبل، وتوارى الشقوق، لكي لا تزول النعمة، وحدث ما كان يخشاه الناس، فبغير موعد عز القوت، هامت العيون تبحث عن أي شيء يؤكل، لا يعنيهم إن كان جيفة أو غير ذلك، ولا يعنيهم هي في ملكية من...

العم سليم، لم يعجبه الكلام، فكان لا بد من السؤال:

- وده حصل؟
- حصل.
- كده من الباب والطاق!
- ازاي طبعًا كان فيه سبب.

هز العم سليم رأسه وقال:

- أكيد الرب كان غضبان عليكم.
- لأ وأنت الصادق، كل اللي جرى لينا بسبب الإيمان اللي كان كل همنا.

حدث العم سليم نفسه وأقسم أن الرجل مجنون، فكلامه يخلو من المنطق، فكيف تعز الأقوات إذا ما كان الناس في حالة إقبال على عبادة خالق الخلق.

الغيوم لم تكن خافية على الرجل، فوضح.

كان المؤذن ينادي على الصلاة فيقبل الناس، تمتلئ الجوامع، فُيؤدي الفـرض علـى أكمل وجـه، وإذا ما خرجـت الأبدان راحـت تنقر الأرض، تسـتخرج من جوفها ما تأكله، استمر الحال حتى دخل البلدة رهط من أولاد نمنم، يتقدمهم عجوز، كان يسقي الناس من شهد لسانه فيسكرهم، قال لهم ما جدوى العمل والفناء النهاية الحتمية لكل شيء، وأن الرضا مجداف، والرضا سـفينة، الناس أينما وجدته التفت حوله، أيامها نسـوا أهله الذين دقـوا خيامهم في أطراف البلدة، وكالثعبان بدأت حركاتهم، يلتهمون كل شـيء، ولمـا انتبه الناس، قال لهم العجـوز إن الدنيا دول، وإن الملك يؤتيه الله من يشاء.

الكلمات في حد ذاتها، جعلت العم سـليم سـاكنًا، مترقبًا مشارف الحكايـة الواقف على بدايتها الناطوري، ولم يطـل انتظاره، قال الرجل: (ركبت حمارتي وخرجت أبحث عن حل لمشـكلة ناسي، أيامها كانت حكايـة الناطوري وصلت إلينا، فعرفنا كيـف أنقذ أهله من خطر الجوع بالقريلـلا، على مشـارف أرض البلد وجدت جسـدًا جهمًا بوجه يملك رقة النسـاك، جاءت عيناه في عيني فلمح العكارة السابحة بداخلهما، قـال ما حكايتـك، حكيت، فانزعج وتلون وجهه وقـال: أعوذ بالله، هما دول شـر الطريق، مش مخلين الراكب راكب ولا الماشي ماشي، أيقنت أن الرجـل بداخله نيران، فقررت ألا أنـكأ جرحه، فهببت واقفًا، وقبل أن أعطيه قفاي، قال:

- تسمع عن اللي بيسرقوا الكحل من العيون.

قلت: أيوه.

قال: هما دول ولد نمنم، وشدني من ذيل جلبابي وقص عليَّ حكاية رجل حط في بلد، ولم يكن معه إلا ثعابين يلاعبها فترعب الوجوه، وتجعل الأيدي بسهولة ويسر تخرج ما في جيب الواحد، وفي الليل يتخيلونها مجسدة، فيفزعون، ويعز النوم، ويهيأ لهم من كثرة ما رأوا الثعابين أن البيوت مسكونة بها، فما كان من ضعاف العقول إلا أن قالوا: عليكم بالرفاعي. وحط الرجل بعمامته الخضراء الكبيرة، وأخذ يجوب الطرقات وهو يصرخ: مدد يا رفاعي مدد. يدخل البيوت، يعاين ويخرج، وبفم ينثر ريما يقول: ـ خلاص بقيوا تراب.

صفق الناس، وأخذ نصيبه ومضى، أيام وحل بالبلدة رجل غريب ثالث، وقال لهم: إن البيوت مسكونة، ويجب تغيير العتب. فهجر الناس البيوت، وسكنها الغرباء الثلاثة، من كلامه، عرفته، فقلت له: أنت الناطوري... ضحك وقال: ارجع من مكان ماجيت، وشوف الكرمة وخليك صالب عودك تحتها.

- يعني أصبر.

قلت له، فرد هو:

- واعمل.

قال العم سليم إن الرجل لم يكمل، بسبب الصرخات التي ارتفعت، والهرج الذي أعقبها، وأصبح الناس فريقين، فريق يأخذ على قفاه، وآخر يعمل يده، وسكت، مواربًا نظراته ناحية سكرة، ليوازن بين المحافظة على عدم انفلات الدموع، والمحافظة على شرفة صغيرة يطل منها عليها، يرصد ردة فعلها، فلما طال الصمت، وجثمت دقائقه على القلوب، كسنين ضمختها العذابات، رأى العم سليم أنه المفوض الوحيد بقطع حبال الصمت، فوجه كلماته إلى سكرة:

- أوعي تكوني مش مصدقاني؟

كومضة خاطفة، تخيلت الربع والشاطئ الواقف عليه وحده، وقلت إن العم سليم، سيجاوره في وقفته إن عاجلا أو آجلا، هذا التصور استقر كمبدأ، استمد وجوده من أن الاحتمالات تميل إلى ما هو أبعد عن براح التصور، وأن جنوحه إلى هذا، يأتي من باب ترقب الأسوأ، وحتى إذا ما جاءت الظروف بما هو في حيز الحسبان فقضاء أخف من قضاء، وهو ما قلته لنفسي، وسكرة تذوب من جراء دموع العم سليم، التي هطلت حينما أيقن أن سكرة أوصدت أبوابها في وجهه، وأن الباب الذي فتحته، بدأ يعود لسابق عهده، لكن ما حدث كان خلافًا لما وقر في عقولنا، ولولا وجودي، شاهدًا على ما دار، لقلت إني أحلم أو مازلت أعيش في دنيا الأمنيات، وحتى الآن، يقلقني السؤال، كيف فعلت هذا، وبتلك السهولة، تقف على الشاطئ الواقف عليه العم سليم. شعور مرتبك حينما تفكر في شيء، وتظن أنه مستحيل الوقوع، فإذا ما وقع، فأنت

من شـدة اسـتحالته، تشـعر بأنك بحاجة إلى من يصرخ أمامك «ما تراه هو الحقيقة الغائبة».

أصبحت قوية وأنا أرى سـكرة وهي تقـوم وتخطو إلى مكان جلوس العم سليم، وتقبيلها لرأسه، لقلت أن هذا حدث أو يحدث في المشمش، لكن الأفواه التي مضغت الصمت، هي نفسها التي بلعته، وقالت:

- ربنا يديم المحبة.

وزهيرة التي اغرورقت عيناها، مالت على ياقوتة وقالت لها:

- تعرفي تعملي شاي.

قالت: أجرب.

بثقة قالتها، وفردت طولها، واتجهت إلى مكان المطبخ، وأنا لحقت بها بحجة مساعدتها لأنها لا تعرف أماكن السكر والشاي، ودنوت منها، كان جسـدها فصيحًا، هي وأنـا، وبيننا الصمت. كمـا كانت طوال أيام وجودها في البلد، دائما هي في الكرسي الذي أمامي، والكل يطوقها يريد التهـام ثمارها الناضجة، التي تخنقها بهـدوم تحدد النهدين، والردفين، والعود الممتلئ... آه... لو يعلمون ما تحت الملابس، لضربوا كفا بكف كما فعل الشباب في اليوم المشهود، والصوت يدوي: كله هنا.

(6)

اليوم المشهود

في اللحظة التي توارت فيها ياقوتة وغابت خلف جسد زهيرة، رمقت الخطوط المنهمك في تشكيلها، وتابعت اليد المرتعشة، وجدتها تعمل بعشق، تخط شوارع وحارات وجامع وكنيسة، ومدرسة ووحدة صحية، وعلامات على الطرق، أدق التفاصيل، لم يترك مكانًا داسه إلا وحدده، وجعله حاضرًا. في طرف البقعة كوة صغيرة بالكاد يولد منها طريق راح يتمدد ويأخذ شكل المتاهة، ليستقيم ويحوط السوق، وينتهي عند الخطوط التي تجاورت طوليًا لتطمس بيوت الشطر الثاني من السوق، الذي وضحه بمربع، في وسطه داس بإصبعه فترك حفرة، وقال:

- هنا الشجرة.
- تمام.
- هنا موت.

- بعد الشر.

- وهو فين الخير.

ورفع يده وأشار إلى الأجساد العارية، من النساء ومن الرجال، وابتسم ومد يده ليتجاوز بيوت الشطر الثاني المطموسة، ويثبت العصا:

- هنا شفت الربع، وهنا ضربت الغنامة، وهنا.

تدخلت سكرة لتقطع عليه الطريق:

- كفاية سيبهم.

يترك العصا نائمة، ويجري بعينه السليمة على وجه سكرة، ويقول بود وهو يشير إلى العراة:

- دول مساكين.

تركتُه، ونظرت إلى زهيرة، المتلاصقة بالجدار كأنها تقول له انشق وابتلعني، كل شيء فيها كان مباحًا، رأيتها فقلت إن الفأس وقعت في الرأس، وأصبحت الأشياء سداح مداح. نتيجة كانت متوقعة منذ تلك اللحظة التي اجتمع فيها الأجواد[1] من الناحية، قالوا للناطوري في قاعته المزدانة بصورته إن الوقت وقت ريح عاتية، والشاطر من يقدر مصلحته ومصلحة ناسه، ويحني قامته للعاصفة لتمر بسلام، وبعدها يكون له وقفة.

(1) كبار القوم.

كان كلمـا غم عليـه الأمر، طوق أذنه بيده، فيعـاد الكلام، وفي نهاية الحديث، قال لهم ورأسه جهة الأرض:

- يعني هما عوزين إيه؟
- السلاح.
- السلاح!!
- اللي مش مرخص.
- ومين معاه سلاح مرخص في زمان الهباب.

التفـت إلـى الوجـوه، وأطال النظـر، فرأيتهـم يتحولون تحـت نظره إلـى كيان واحد، تداخلت الأجسـاد أكثر، فأصبحت جـدارًا قويًا، وقالها صريحة إن هناك وشاية من البلدة الجديدة، التي كانت شطرًا من السوق، والقرار لكم، وتركهم يتهامسون همسًا خفيفًا، ينفثون عن حيرة قلوبهم، ويحاولون لم شتاتهم لمواجهته، أي الفريقين سوف تكتب له الغلبة؟ كل شـيء ممكن وجائز، ما دام الجميع داخل الحلبة، هكذا فكرت، وتابعته وهـو يضع راحة يده السـليمة على مقبـض عكازه، وعليها أنام رأسـه، وسمعهم وهم يقولون بنفس واحد.

- ليس لدينا إلا النبابيت؟

نفض الأجواد هدومهم وقاموا، وهم يقولون إن العصا قوية، وإن عليه تحمل نتائج ما قالوا. تأكد ذلك الإحساس حينما جلس مع الجد هاشم

على المصطبة التي بعـرض حائط الجامع، وبعد أخذ ورد طويلين رأي الجـد هاشــم أن الخيرة فيما اختـار الله، وعندما هـم بالقيـام قال إنه لو الحكم بيده وليس بيد الحكومة والأجواد، لقبض على نساء الشق الثاني ورجالهم بتهمة السفور، وحرر لهم جميعًا محضر «تعكير مزاج»، ضحك الناطوري بينما الشمس تنقب صفحة السماء وقال: تعرف إننا دايمًا نبص لقدام وعيونًا في نفس الوقت تنضر للخلف.

- يعني عين في الجنة وعين في النار.
- وأنت الصادق نشتاق ليوم يرجع لينا كل اللي ضاع.
- ـ علشان كده قالوا اللي قالوه.
- بس أنت وافقت.
- قول سكتّ
- طيب خلاص هما أحرار.

وهز رأسه ولم يعقب؟ فما كان من الجد هاشم إلا إن قام واتجه إلى داره، لنراه بعد دقائق يخرج متوجهًا إلى المدرسة، بينما جدي راح يمضغ كلمات لم تصلني إلا قوله:

- الجمل ماشي كويس ويا الجمال، بس الخوف كله من سماع كلام العيال.

وكأنه علق تلك الكلمات فوق لسانه، لم يمل من تكرارها، لدرجة أنها راحت تسلب قطرات ماء مالحة من عينه السليمة، والأخرى الكريمة ـ من أثر ضربة السوق ـ بلل الماء محجرها الخالي؟ بيده المرتعشة مسح الدموع، اختفى خيط الماء، لكنه ظل ساكنًا داخل محجر العين التي حولها جهة البيوت، تفحصها، توقف عند دار العم سليم ـ كانت مغلقة على غير العادة في مثل هذا اليوم ـ استدار فكان وجهه كاملًا في قبضة عيني، وجدت زحامًا من الكلمات، فبشرت نفسي بسماع ما يضع نقاطًا مضيئة على المناطق المعتمة والكثيرة؟كان يمكنني نبش داخله بكلمة، لكني كنت أتهيبه، خصوصًا إذا كان وجهه في وجهي، لذلك فضلت السكوت حتى يتكلم بمحض إرادته، وما حسبته كان، فقد قفز فوق الصمت وقال وهو يخلع عينيه من وجهي، ويلقي بهما على بيت العم سليم مرة ثانية:

– مسكين سليم، شيلوه شيلة هو مش قدها.

تهلل داخلي، ومنيت نفسي بولوج القصور المغلقة منذ حادثة السوق، وقلت قد يكون العم سليم هو النقطة المضيئة التي ينطلق منها، قوى الأمل باستمرار عينه على البيت الذي لم يفتح بابه، وكما وضعها سحبها، وحطها تحت قدميه، فرأي جزءًا من جريدة جافة طوله يقارب نصف ذراع، أشار إليه:

– هاته.

انحنيـت، ألتقطه، وناولته إيـاه، أخذه ونزل من فوق المصطبة. وحط مقعدته على الأرض الترابية وراح يخط بها خطوطًا، استمرت حتى بعد أن أقلقت سرينات السيارات الزرقاء هدوء الرهبة.

جملته التي خص بها العم سـليم، ترددت داخلي وأنا أرى وأشاهد، وأسـمع الخبطات المتلاحقة، الصادمة لـلآذان، والكافية للفت الانتباه وإدخاله في دائرة الوعي المغيب والمستبعد القبض عليه بعد دقائق.

تذكرت الشـيلة الثقيلة التي ما زال يحملها العم سليم، وكأي واحد من أهل الرهبة حينما يضع العم سليم بجوار الست فوقية، كدت ابتسم، كما أفعل دائمًا، ابتسام كان دائمًا يجر خلفه حكاية زواجه منها.

كان جالسًا على رأس القراريط القليلة التي يزرعها، منهمكا في جدل الحبال، حينما جاءه الصوت من فوق رأسه:

- اسقينا؟

رفع وجهه عن حبل يقوم بجدله، رأى عجوزًا، فقال لها:

- تفضلي.

وتناول نسيلة من الليف، وصل بها أخرى كان قد انتهى من فتلها ولم يبـق منها إلا طرف، فعل، وصوت غرف الماء يصل إليه، وكذلك صوت العجوز وهي تقول:

- تعالى.

رفع وجهه مرة ثانية رأى صبية تقبل بخطوات مترددة، قصرت المسافة بينها وبين أمها، ومدت يدها، أخذت الماء، وراحت تشرب، ثم سمحت لصوتها بالخروج، ممزوجًا بدلال أنثى لم تحرث أرضها بعد:

- جسمي اتهد يا أماي وما عاد يقدر على المشي.

حررت الكلمات رأس المنهمك في جدل الحبل من مشاغل كان يفكر فيها، لوى عنقه، شاهد وجها مستديرًا، وشعرًا مسترسلًا، يتحرر من تحت طرحة تسجنه، رأى، فمص ريقه، وتابع بهدوء شفتين يصبغهما حر الصيف بلون دموي شهي. إنه لأمر غريب أن تتيح كنوزها. قالت نفسه، فسارع بإسكاتها، ومنح الصبية كامل وعيه، وتابعها وهي تلامس بمؤخرتها أرضًا مترية، استفزته، فتقدم، قبض على لحم ذراعها، وطلب منها الجلوس على حصير السمار.

في البداية تمنعت، ولما وجدته مصرًا، قامت وكتلة من لحم ذراعها مسجونة في يده، وإحساسها بالألم، جعلها تخلص ذراعها من قبضة يده، تركها، فجلست ومدت ساقيها، رأى هو حركتها؛ فمسح على شاربه، صادف فعله ضرب مهرته الأرض المترية الواقفة عليها، فنال وجهه بعض الغبار المتصاعد، توجه إليها، حجمها بالعصا فوقفت، وراحت تلعق قمتي شفتيها وحواف فمها، وسط دهشة الصبية التي سكنت. عاد إلى الحصير، وسألهما:

- غرب؟

- ما غريب إلا الشيطان.

قالــت الأم، وهمــت بالوقوف، تقيســه بما تفعل، عرفــت لهفته، من اكتمــال صورة ابنتها في عينيه، لهفة ســارع لتأكيدهــا، وطالبهن بالبقاء حتــى زوال القيالة، نظرت الصبية لأمها، فدق قلبه خوفًا من رفض الأم، فسارع وقدم عرضًا بإحضار بعض خيرات أرضه، لم ينتظر ردهما، استدار واتجــه إلى الحقل، عاد بعد دقائق، في حجره عنقود عنب، وحبات من الطماطم، تلقت العجوز ما أحضر وتابعته وهو يخلص صرة معلقة في جذع شجرة، فكها، فظهر الخبز، وقطع الجبن، وبضع بيضات مسلوقة، طلــب منهن جبر الزاد، فمــدت كل واحدة إحدى يديها، فبان في عينيه الرضا، كونه أبقاهما بعض الوقت.

وهو يكمل جدل حبله، قال:

- رايحين فين؟

قالت العجوز وهي تمسح جانبي فمها:

- رايحين الدير.

كف عن الجدل، تأمل ملامحها، أيقن أن خلف الجلد المغضن مكر امرأة، تخطط لأمر ما، لاكتشافه، ركز في عينيها، رأى ضعفًا يناديه، هناك فــي العمق، تجاوزها وما تخفي، حــط عينيه على وجه الصبية، وجدها تأكل بنهم، تأمل ملامح وجهها...

ســألها، فأومأت برأســها بالنفي، فتراقص قرط في أذنيها، لامس كل واحد خدًا متوردًا، استعادته بفعل ما قدم لهما.

لمـت أمهـا ما بقي مـن طعـام، أعادته إلـى الصرة، انتهـت، فألقت بجسدها بجوار ابنتها، أمرتها:

- قومي اغسلي وشك.

قامت، والجلباب يغيب بين فلقتين، خايلته، فأحس برعشة عضوه، ارتجف خوفًا من افتضاح أمره، فمد يده وحبسه بين ساقيه، ووزع نظراته بين مهرته العائدة لضرب الأرض، وجذع الصبية القريب من الزير، أحست بـه، فمـدت يدها وغرفـت من الكوز مـاء براحة يدها، غسـلت وجهها، ومسـحت صدرها، شاهدها فشبت النار في جسده، وارتفعت ألسنتها وقت أن رفعت جلبابها، فبان جمار ساقيها، تنهد، وقال:

- حرارة اليوم لا تطاق

المـرأة الخبيـرة، عرفت أن مـا تريده كل أم بقي عليـه خطوة، بفمها فعلتها، بعد أن وضعت عينها على قرص الشمس، قالت:

- عدلي حالك.

نسـى النار، وتعلق بالمـاء المعول عليه لإطفـاء لهيبه، طلب منهما البقاء في ضيافته، نظرت الأم لبنتها التي انتهت من ستر كل جزء تحرر إلى مكانه المتواري تحت القماش، وقالت:

- خلاص؟

قالت:

- خلاص.

فـك قدمي حمارته من حجالها، ووضـع على ظهرها صرة الهدوم، وجرها فسارت، خلفه الصبية وأمها، يتبادلان همسًا، لـم يتعب نفسه في معرفة أرضه، ولا مفرداته، قال: لا يخصني. ومضى خلفهما.

بعد خروج العم سـليم بالسـروال والفانلة، من نظرة واحدة يستطيع الواحد أن يلمح الرعشة التي تسكن جسده، كعصفور في قبضة صاحب النجـوم ظهر، وخلفه أحد رجلين يسـدد له الضربـات التي تصوب في منتصـف عموده الفقري، وخلفه كانت السـت فوقيه فـي حالة لـم نرها عليهـا، فالجلباب البيتي تطرزه المزق في أماكن حساسـة كثيرة، تكثر عند محيط الردفين، وعلى الصدر، وبالقرب من التقاء الفخذين. خلفها كانت ياقوتة، تخطو بانكسار جسد يحبو نحو بدايات النضوج، والخروج من قبضة البنت أم ضفائر إلى الصبية التي تحط عليها العيون. فور أن غادرت قدما ياقوتة عتبة البيت دوت صرخة صاحب النجوم:

- كله هنا.

صرخـة جعلت الناطوري، يترك العصـا القصيرة التي في يده، نائمة بجوار الرسم الذي لـم يكتمل بعد... رأيته يهمس بشفتيه، يطلب الستر، ويقول: اللهـم اسـترنا فوق الأرض وتحـت الأرض ويوم العرض عليك... قلت أنا بيني وبين نفسـي: اليوم لا ستر... ثم سكت كأن الأمر لا يعنيه

من قريب أو بعيد هائمًا بعينيه على تراب المنطقة التي تبعد عن موطئ قدميه بضعة سنتيمترات، والعصا الرفيعة، مستسلمة لأصابعه، يحركها كيفما يتراءى له، منفصلًا عما يجري حوله... غير عابئ بالأقدام التي تمر بجواره، وبكم الأتربة التي تثيرها، والتي تفوق بكثير ما تخلفه حوافر الخيل، ومن جانبه لم يكلف نفسه عناء مد يده وتنفيض الغبار الذي استقر على عمامته البيضاء، ولحيته الكثة البيضاء أيضًا... لكن العيون من حوله تستحثه، تطوقه، تطلب منه عمل أي شيء... تقول له فالسكون ارتضوه زمنًا منه، وحيدًا يجلس، وحيدًا يتكلم، وحيدًا يدخل الجامع ويصلي، وحيدًا ينام منفردًا، ضامًا ركبتيه لتلامسا بطنه... هو لم يهتم حتى بعد أن بدأت الصفعات تدوي، جاعلة الشرر يتطاير من العيون ليعانق النجوم التي تضوي في عز الظهر فوق الأكتاف... لحظتها... النجوم طارت... العقول طارت... والعمائم طارت... والدموع فرت وطارت، ساقطة تحت أقدام صاحب الوجه اللحيم (والذي هو في نفس الوقت مالك النجوم)، وكلوة يده تعبث في الوجوه... وسؤاله الوحيد، يطن في الآذان:

- هاتها؟
- منين يا بيه؟!
- هاتها لو من...

يحمـر وجـه النسـاء، الملتصقـات بحوائـط البيـوت وينظـرن إلى المسـاحات المتوارية أعلى الفخذين (هنا امتدت عيني، لاحقت ياقوتة وهي تحاول التواري في كتل النسـاء، تحاول الابتعاد عن العيون الغريبة المتأسـدة في عيونهم نهم لمعرفة ما تحت القميص السـاتان الواصل إلـى الركبتين، والذي أتاح فرصة لصدرها البض المسـكون بأرنبين في طـور النمو، أنا الوحيد من كان يراقب، فالناس كانوا في كهوف الخوف ينتظرون بعيون لا تجيد القنص أو الصيد... وهن كنا في شغل).

فأعناقهـن كلـت الميل نحـوه، وأجسـادهن جهارًا عيانًـا في مرمي النظرات المتأسدة فيها الشـهوة، وذكريات الأيام تسقط، وأفواه الأمهات والجدات تنقب حوائط القبور، وتطل، تذكره ـ وهو في انهماكه ممسكًا بالعصا ـ بغيرته، بسـوط لسانه، يجرده عليهن، إذا ما مالت الواحدة عن ظلها، وتبعثرت طرحتها، وإذا بان من وجهها ولو خرم إبرة، وإذا ما وطئت عيـن أدمي وجه الواحدة منهـن، كان يثور ويحدف فمه الريم من زواياه، ويده يشمر عنها كم الجلباب، فتنفر العروق وهي قابضة على «زقلته»، يطوحها، ويعملها في الأجساد... تفر من أمامه الرجال... وتمر الأجساد الغضة في الدروب البعيدة... فلا تجرؤ الشهوة على تحريض العيون... الصفعات تثقب طبلة أذنه، مقبولة، البصقات فوق الوجه الناشف الذي حمصته الشـمس مقبولة والجسـد المفرود أمام الوجه اللحيم، مقبول أن يفعل فيه ما يريد، يعجنه، يربه، يوسـعه ضربًا، وركلًا... وشعر الواحد منهم المهوش والمبلول بعرقه، يناوش عيني خليلته، المائل عنقها نحو

الجالس هناك فوق التراب، يخط بعصاه خطوطًا غير مفهومة (كنت أراها هكذا وأنا بعيد عنه) لائذًا بصمته... الفم ما زال يجأر:

- هطلع على جتتك البلا.

والجسد ساكن بين يديه، به بعض الصلابة، والرمق الباقي لتحمل ضربات اليد بكلوتها الباظ منها اللحم... سكونه وخشخشة عظامه المتعاركة مع بعضها يُسمع لها صوت، حني تفاحة آدم بصعودها وانخفاضها يُسمع لها صوت، ومصه لريقه يُسمع له صوت... الصفعة تطيح برأسه، وعند ارتداده يعانق عمامته البيضاء وقد خللها الغبار، ويده مازالت تعبث بتراب الأرض...

«منها خلقناكم وفيها نعيدكم».

تسحله الأيدي ومؤخرات بنادقهم تدك عظامه، وحذاؤه يفارق قدميه، فتظهر الطبقة اللزجة الملتصقة بالقدمين، المعجونة من تراب الرهبة وعرقه...

النسوة مازالت عيونهن تستحثه، ويتساءلن فيما بينهن: أتراه رسخ في نفسه ما يقوله أهل الدروب من حولهن بأن ضرب الحكومة ليس عيبًا... ترتجف القلوب، وصاحب الوجه اللحيم... أخيرًا ينتبه إليه، وإلى سكونه الفارش فوق صفحة وجهه، وكم العيون المتعلقة بأستاره... اللهفة تجتاحهم إذ يرونه، يفرد جسده بنجومه، ويكسوه بظله، ويخترق العقول سؤال: أيتركونه ليلاقي المصير الذي ناله بعضهم؟ أم أن هناك

حلًّا آخر؟ أسـئلة اختفت، وأنا أرى الجد هاشم ينفذ من بين كتل البشر أصحاب البشـرة الصفراء، ولما عبر، اسـتدار وهشـهم، لكنهم لم تؤثر فيهم الكلمات، فتركهم، واقتحم المشـهد بصدره، وبجسـده المتواري في البذلة العتيقة التي لا تفارق جسده الشتاء بطوله، من يراها يظن أنها سترة لمبيض محارة، بسبب اللون الأبيض الذي يلتصق بها... وصادف حضوره طريحة العم سليم، عصبته الصفعة، فحدق في صاحب النجوم بعينين تطلقان وهجًا، وزفر السؤال:

- معاك أمر نيابة ؟

ولما فرزه صاحب النجوم بنظرة تعرف مقادير الرجال، عرف أنه أمام شخص أقل ما يوصف به أنه رجل عادي... وقالها:

- وإيه أنت؟

- مربي أجيال.

ضم شـفتيه وأطلق ما يشـبه الضـراط، ثم أردف الحركـة البذيئة بـ: طز... كلمة رددتها الرهبة والحوائط، واستقرت في عقول العراة... زهيرة جرحتهـا الكلمـة، التي لطخت رأسًـا كثيرًا ما تحلف بهـا، همت بالرد بطريقـة فرش الملاءة، لكنها تراجعت وثبتت فـي مكانها تحت إلحاح نظرات الجد هاشم...

رأته سـكرة يتقدم منه، وقد وضحت أردية الغضب التي يتسربل بها، ونجومه تلمع بفعل شـمس كانت قد طلعت، اتشـح المكان بالصمت

والترقب، والناس أرسلوا أنظارهم إليه وهو في جلسته يمضي في الخط على الأرض الترابية الممتدة أمامه... قلت «ربنا يستر»...

في تلك اللحظات كانت الشمس تزحف إلى محيط جلسته، فخشيت عليه منها، فهو كان يدوخ إذا ما ضربته بسياطها، بسبب البنج الساكن جسده منذ اليوم الكابوسي... ورأيته يرفع عينيه، يفارق الرأس والكتفين، والجذع، ويجعلهما على الحذاء المتحرك نحوه، حدد معالمه، ثم تركه ومسح وجوه ناس الرهبة الميممة وجهتها نحوه، ولما مسد كل فرد، تركهم وعاد وامسك بالعصا... لا أعرف لماذا جثمت ذكرى اليوم الكابوسي أمام عيني، ولمحته تحت الشجرة وحيدًا، غارقًا في دمه، ومن حوله الهرج والمرج، وكل واحد يقول نفسي ومن بعدي الطوفان، هكذا أتصوره، صحيح كان حوله العشرات الذين جعلوا جل همهم في إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الريع، قد يكون العذر عندهم أما اليوم فلا يفصل بينه إلا قطر الرهبة وصاحب النجوم ورجاله، قلت: هل يتحركون؟ وينتفضون انتفاضتهم الأخيرة، وبعدها يموتون بشرف، بعد أن يتركوا أثرًا تحكيه نساؤهم وبناتهم... بالطبع لم يتحرك أحد... وهو لم يهتز، واستمر يكمل ما كان يفعله، ربما لأنه لا يملك شيئًا غير الصبر بعد أن راحت منه صحته ونور إحدى عينيه، واستوطنت الرعشة في نصف بدنه... ومع تقدم صاحب النجوم، بدأ يختلس بأذنه وقع الأقدام المتقدمة منه،

ولما أشـرف عليه وهـم بدهس بدايات الخطوط التـي كان يفعلها، رفع وجهه الشحيحة فيه معالم الحياة وقال:

- عندك.

ومد العصا وحدد له نهاية تقدمه، كل من سمع الكلمة ألجمه الأمر وقالوا بأفواه صامتة «يفتح الله عليك»...

من صمتهم أيقنت أن اقتراب صاحب النجوم منه لن تحرض نفوسهم أبدا، مهما فعل، ومهما قال، وتأكد هذا اليقين عندما زعق صاحب النجوم فيه: فز قوم. ونظر للوراء وقال لمن يتبعه من رجاله: فتشتوا بيته.

أحدهم دنا منه وهمس بكلمات، عرفت من رفيف شفتيه أنه يعرفه بشخصيته التي يجهلها، لكنه لم يمهله ليكمل ما كان يقوله، فبحركة من يده جعله يضع لسانه داخل فمه، وقال باستهتار: ولو... وإيه يعني... هنـا أظـن أن اليقين الذي كبر عنـدي، كان لديه مثلـه، وتأكد لديه وهو يجول بعينيه، ليمسـح بهما كوكبة العراة من أهل الرهبة في سـكونهم التام، وهم لا يحركون ساكنًا تحت وطأة ما قيل... في رحلة العودة كانت عينـاي في عينيه، تجاوزني ومال عنقـه، ألقى نظرة إلى البيت المفتوح علـى رجله، وشـاهد أمي. الوميـض المطل من عينه السـليمة، خطف قلبي، جعل نوعًا ما من الشجاعة تتلبسني وتتلبس سكرة التي اندفعت إلى مغادرة مكانها، وتقف بجواره على خط مواز، وبكل قوة صرخت في صاحب النجوم:

- أوعي تقرب منه...
- ليه علي رأسه ريشة؟
- ده الناطوري.
- يعني هو الواعر اللي فيهم...
- ونظر إلى من كانوا خلفه وصرخ فيهم:
- هاتوه...

بنقلها جسـدها خطوة واحدة كانت جدارًا صلدًا بينه وبين أجسـاد راحت تتقدم، كان صوت ركز أقدامهم يملأ المكان.

(7)

الرجل الشجرة

في المسـاء انشغل نفر من أهل الرهبة بكنسها، وحمل الماء لتندية الأرض، ثـم جمعت الدكك وكذلـك الكنب، ورص كل هذا في صفوف متقابلـة، ثم فردت عليهـا المفارش، والوسـائد، وبدأ الأطفـال الصغار، يتوافـدون ويلوذون بـالأركان، بعيدًا عن مجالس الكبـار الخالية، بفعل عصا رفيعة يمسك بها الجد هاشم...

أنظـر إليهم وهـم يتزاحمون في الركـن المختار، عيونهـم الصغيرة والحذرة تراقب حركة اليد الممسكة بالعصا، الخوف يطل من عيونهم، أتساءل: أيملك كل واحد منهم جدًا مثل الناطوري، وإن وجد من هو مثله، أيكون مصيره نفسه، ثم أسكت وأعيد السؤال بطريقة أخرى (مش يمكن واحد منهم يكون هو النطوري).

سـؤال ما زال يؤرقني، يصبح أكثر حضورًا في تلك الليلة، والأطفال يطل الخوف من عيونهم، وهم ينتظرون إشارة تأتي من يد الجد هاشم، ليندفعوا إلى ركن آخر حيث توضع لهم القصاع المملؤة بالعقيرة[1].

المشـهد يقـول إن وقـت التزاحم لم يحـن بعد، و أبـو فريج أمامه نصف سـاعة ليأتي ويملأ المـكان صخبًا بصوته الجهوري، سـيأتي حينما تتعلق الشمس كنقطة كبيرة، أرجوانية اللون، وقتها سيبرز رأس البغل هضيم الجسد، ومن بعده عربة الكارو عليها السماعات الكبيرة والقمع، وهو.

نـرى البغلـة وضعفها، ونقول لن تكمل الليلـة، نقول هذا وما زالت تأتي، لتربط هناك في حديد شباك مندرة الجد هاشم، وتلقي لها زهيرة بعض الدريس...

هناك ينتظره الربع وهو يشـعل سـجائره، كل واحدة من أخرى تلفظ أنفاسها، يجلس بعيدًا عن مرمى نظرات الجد، وعيون سكرة المشغولة في اللمسات النهائية على الأكل، وعيني جيهان تلاحقها بعين وبالأخرى تراقب ياقوتة التي تتابع نضوج الأرز على نار هادئة، بجوار أمها التي تحول البتاو إلـى أربع للمحافظة عليه، وهي في نفـس الوقت تخرج وتطلب همسًـا من زوجها أشـياء، يغادر مكانه ويدخل بيتهم ويأتي مرة بأطباق، ومرة بملاعق، ومرة بملاحة، وتدخل، أمي دائمًا تحافظ على طقسها معها منـذ عودة العلاقة بينها وبين أم ياقوتة، وأم ياقوتة في لحظة ما من اليوم

(1) وجبة تنضج من دشيشة القمح.

ويدها بيد أمي، تخلع الجلباب، وتبقى بالقميص الكتافي، في أول مرة رأتها أمي كادت تنهرها، إلا أن دموع الست أم ياقوتة أخرست أمي وما قالته بعد ذلك جعل أمي تحتضن جسدًا يهتز وهي تقول «راح عمود الخيمة يا أستاذة».

أمي أقسمت أنها مثلها ما زالت تعيش في اليوم المشهود، وبذاكرة كاشفة تقص في منتصف اليوم ما حدث لها قبل أن تخرج إلى الرهبة بعينين دامعتين وجندي يسدد لظهرها فوهة بندقيته.

عم سليم الآن يجلس بجوار الجد هاشم، يجلس ساهما، من نظرة واحدة يستطيع الواحد أن يلمح الارتعاشة التي تسكن جسده، كأنه ما زال عصفور في قبضة صاحب النجوم...

لمن لا يعرف فالعم سليم دائمًا يعيش في حاله، لا يتدخل في شئون الناس، وبالتالي الناس لا تتدخل في حياته، على الحافة يعيش، تأثيره فقط في النكهة التي يضيفها لمن حوله، والمجتمعة بطيب العشرة...

سليم حاله لم يعد كما كان دائمًا تقول زوجته...

زهيرة سألته ذات مرة:

- أنت لسه يا أبو ياقوتة صاغ سليم؟

قال والدموع تخر من عينيه:

- مش لاقي نفسي من ساعة اليوم المشهود

ضحكت، وقالت له وهي تمد يده القابضة على منديل معطر ورقي:

- طيب وليه يا خوي ساكت على نفسك
- أمال أعمل إيه؟
- زي هاشم.
- وهو بيعمل إيه؟
- حط همه في البرشام...

اندهش العم سليم، فواصلت:

- بقى كل يوم ليه برشامة يأخدها من هنا وتقول رهوان بيرمح في سبق، يعمل اللي بيعمله الناس، ويحط جنبه ووشه للحيط، وميصحاش غير لما الدنيا تبقى ضهر...
- ودي عيشة.
- كله محصل بعضه.

الأطفال أمامي، ينظرون إلى الصبي الذي ينتقل بمهارة بواسطة سلم، ليعلق حبال اللمبات الملونة، أشرطة طويلة قطعت عرض الرهبة، وأخرى الآن تمتد على واجهة البيت الأمامية، وهم في تداخلهم، أتخيلهم في شكل قرص عباد الشمس، كل رأس حبة من حباتها، بها خرزتان فزعتان، في كتلتهم، يصبحون كقطع الخشب، تلقي في راكية نار، وحدي أنا من

يتجرأ ويستدفئ بها، وفي لحظة الشبع، تلمع عيناي، ويسحرهم اللهب، فأراه، لحظة، وأقبض عليها، وأنا بجواره، والخوف يمسك بتلابيب قلبي، وجسدي المرتجف، تمسك به رعشة الخوف، الظلام من حولنا يلف الرهبة، فلا البيوت ظاهرة، فقط هي كتل خرافية من السواد والغبار، والعواصف قد خفت حدتها بعد رحيل السيارات الزرقاء، وكذلك صاحب النجوم، بعدما سوى الأجساد، وتفرجت عيون ناس الشق الثاني، خرجت من البيت، فطلبت صدره لأحتمي به من أشباح ما رأيت.

حمل وجهي بين يديه المرتعشتين من أثر ما ألم به، وراح بأنامله يمحو أثار عبراتي، والتي جف معينها لحظة أن كنت في صدره، أنصت لهمس أنامله المارة على ظهري...

وحينما حرر وجهي كنت قريبًا من وجهه يصلني لفح أنفاسه، دافئة كانت، فغرست الاطمئنان الكامل، بالطبع لم أكن أراه، ولا هو أيضًا لم يكن يراني، لغزارة الدموع المنهمرة، لكن كل منا يرى الأخر بطريقته، ولإنهاء هذا الموقف رغبت في العودة، فوقفت وكدت أتحرك، لولا يده التي شدتني وزرعتني بجواره...

أنا وهو الآن، مكان قرص عباد الشمس، وصدى أغنية تأتي من البيت، وكان النواح قد خفت، والكلاب النابحة داخل البيوت قد همدت وراء أبوابها، وإن بقى عدد منها يصارع مخربشًا لحم الأبواب من أجل الخروج...

هـو ـ ليخلـق حالة مـن حالات التواصـل ـ مد يده، تنـاول بها كفي القريبة منه، وراح يسجنها بهدوء في قبضته، وبفمه نسج حكاية، محت الخوف من قلبي، هو نفسـه السـاكن الآن في وجوه حبات قرص عباد الشـمس المتداخلة لحد الالتصاق خوفًا من عصا الجد هاشم، والذي يقف بيني وبينهم...

الحكايـة على طـرف لسـاني، لا بد أن أمنحهـم فائدتهـا، الذهاب إليهم فرصة، والصبي يدق مسماره في خشب الشرفة من أجل مد خيط اللمبات الملونة، لا بد من منعه، حتى لا يتلف خشبها...

حركتـي تشـبه حركة شـمس خجول، لكـن لا بد مـن الحركة التي تكوّنهـا مجموعـة من الدوافـع، رغبة في اسـتعادة صوتـه، وأمنية محو الخوف الماسك بحبات قرص عباد الشمس...

وجـودي ونظراتـي يخلقان حالة من الود، يفتـح لي القلوب الغضة، ويفك صرة الحكاية الساكنة على طرف لساني...

كان يا ما كان في قديم الزمان أمير، له إمارة يحكمها، وناس يطيعون أمـره، ولأن الأميـر كان عادلًا فقد أحبه أهل الإمـارة، وراح الناس في ظل حكمه العادل يتفانون في العمل، الذي أثمر حياة سعيدة لكل الناس، هـذا الأمر جعل قلوب البلاد المجاورة تحتقـن بالحقد الذي تطور إلى إضمار العداوة...

وليطمئن بنفسه على حدود البلاد، ركب سفينة وأبحر بها في رحلة تفقدية، ولما خرج من غرفة القيادة، لمح النوتي العجوز يجلس، بجواره حربته التي يبعد بها خطر التماسيح المنتشرة في النهر، غضب الأمير واقترب من العجوز ووبخه، لكن ابتسامة العجوز أذابت جمود وجه الأمير، فجلس بجواره، وشرع في عتابه، قائلًا:

- حربتك لا يجب أن تكون بعيدة عنك

ضحك العجوز، وقال:

- كيف أخاف من تمساح الشمع

تعجب الأمير، وقال:

- قصدك إيه؟!

- يمكن يكون من أعمال الجن

وحتى يفسر النوتي كلامه، قال إنه في عهد قديم سرق رجل من صديقه أمواله، الرجل كانت له قدرة وخبرة في أعمال السحر، فراح في وقته وحينه إلى غرفته الخاصة، وأخرج من خزانته شمعًا، شكل منه تمساحًا، طوله سبعة أصابع، ثم قرأ عليها تعاويذه، وبعد أن وضع لعنته عليه، أعطاه لخادمه الأمين، وأمره بوضعه حيث أعتاد السارق أن يستحم في مياه النيل، وحينما نزل السارق إلى تلك البقعة، دبت الروح في التمساح وتحول إلى سبعة أذرع، والتهمه.

انتهي النوتي، فلما سكت ونظر إلى الأمير وجد ابتسامة تغازل شفتيه، فأكمل كلامه:

- ومن يوم أن قصت الحكاية عليَّ، وأنا أهاجم وفي اعتقادي أن التمساح ما هو إلا قطعة من الشمع...

وأضاف أن البحر يمثل له حياة قدر الله له أن يحياها، ولا يتمني منه إلا أن يقبض روحه وهو في قلبه، وضحك، ثم تابع حديثه:

- فأنا مثل السمك الذي لو فارق الماء فقد حياته.

ضحك الأمير وقال مداعبًا:

- وليه متقلش زي التمساح.

- ياه... يا مولاي. التمساح مكار، وخفيف الحركة رغم وزنه التقيل.

وسكت عن الكلام إذ لمح حركة من تحت الماء. فتحرك بحربته، فغمدها، فإذا بتمساح يفر هربًا منه، بينما الأمير تركه، وهو يهمس لنفسه: يا لها من حيلة، يستهين بعدوه، وهو يعلم بقوته، حتى لا ينفذ إلى قلبه، ويبث الخوف والرعب فيه، فتهتز يده، وتسقط الحربة، وعندها يفقد كل شيء... عجوز مثلك لن أفرط فيه...

توتة... توتة... فرغت الحدوتة... وكنت عندهم وجيت، لا حصلت فروجة، ولا ديك...

الوضع اختلف، فالوجوه المرتجفة خوفًا، ملأها العناد، وكنتيجة فورية تجرأ أحدهم، وقطع المسافة بين قرص عباد الشمس، وأول دكة قريبة، وجلس، وراح يهز ساقيه...

ابتسمت وقمت بينما نظرات الجد هاشم تطوقني، تسكنها بعض السعادة بما فعلت، كونه كان يتابع قصة جدي بلساني...

ويلوح رأس البغل، ثم عربة الكارو عليها عدة أبو فريج الذي يترجل من على مقدمة العربة، ويرفع يديه محييًا كل الحضور، ولأنه عجوز، أتقدم منه، وأنا أحاول وأد ابتسامة راحت تخربش شفتي، كون منظره جعل حكايته حاضرة أمامي، يغض الطرف عن ملامحي، ويتراجع مفسحًا الطريق للأيدي التي بدأت في إنزال عدته، وحملها إلى المسرح المعمول من كنب متجاور، فرش عليه حصر...

يظل في مكانه، متقاطع الذراعين على قفصه الصدري، الذي بمقدوري عد ضلوعه، رغم الضعف، ما زال بجسده جذوة الحياة، يشمخ به، ويراقب صبي له وهو يضبط السماعات، ويفرد الحامل، يسكن في نهايته السماعة، وفي لحظة انتهاء الصبي من وضع القمع أعلى البيت، يفك قيد ذراعيه، ويقول لي:

- عاوز الست.

تخرج أمي، بنفس الجلباب القديم، قد أضيف إليه أشياء أخرى ستظل ملتصقة به حتى العام القادم من عجين وبقع من سمن، صوته

رغـم الكبر، كما هو، به حلاوة، يقـول عنه. يا ليتني نظرت إليه بدلًا مما فعلت...

يقترب ويقول:

- زي كل مرة؟
- ما أنت عارف
- كان لازم أسأل.
- توكل على الله.

يسـتدير، فألمح ظهره وقد انحنى أكثر من السنة السابقة، مثله مثل بغلته، تكبر لكنها ما زالت لم ترحل بعد، خطواته وهو يعتلي المسـرح بدت بطيئة، زاحفة، لكنها توصله إلى هناك، حيث (الكرستة) فوق حامل الحديد، يقف خلفها، وينقر بإصبعه عليها، فيخرج صوتها...

طق... طق...طق...

ثم ينفخ فيها بفمه

أش... أش... أش...

ويخطو خطوة للخلف، ويردد:

- واحد اتنين... تلاتة..... عشرة، مكبرات صوت أبو فريج تحييكم، والدعوة عامة للجميع في ذكرى الناطوري.

يغلق (الكرستة)، ويتراجع ليجلس على الدكة المعتلية ظهر المسرح، ويمنح وجهه للساحة كعادته...

أول مرة رأيته، هكذا، رجل عجوز، يجلس على دكة، يضع يده في حجر جلبابـه، ينظر، ملامح وجهه تقول إنه حزيـن، حزن رجل فقد عزيزعليه، عيناه على وشك ذرف العبرات، كنت قريبًا منه، فتحركت، وصلته قبل أن تغيـب العبرة الأولى بملوحتها بين شـفتيه، وهـو يتلمظ كانت يدي تحط على كتفه، وجدته طبقة من جلد رقيقة تحتها عظم ناتئ...

جسده تحت راحتي ملموس، لكن المحسوس المخربش لها بعيدٌ عني، لمعرفته، كان لا بد من السؤال:

- ما لك؟

- اللي يعرفه يحزن عليه العمر كله.

نعمت النظرات في وجهه الناطق صدقًا، وقلت حتمًا له معه حكاية، وإلا ما أظهر كل ذلك الحزن العميق لدرجة تلون وجهه بعلاماته الدالة...

وفي ذلك اليوم تكلم.

بدأ من صدر شـبابه، حينما كان مفتونًا بقوته، وبالمال الذي آل إليه من والده، سـخره لإرضاء نزواته، لم يترك فعلًا سـيئًا إلا وأتاه، وذات يوم هب من غفلته على أرفف الدكان وقد فقدت كل ما عليها، ولم يبق فيه إلا كراتين خاوية، ولما وضع يده في جيبه لم يجد إلا مالًا قليلًا، فجلس والحسـرة تناوش وجهه، اسـتلقى داخل البيت الذي خلا من الأشـياء،

وأطلـق العنان لعقله، قام إلى دفتره القديم، فتحه، كان كل ما فيه مدون بقلم كوبية، لا يكفي جسده المتعطش إلى النزوات لليلتين متتاليتين، هذا إن تيسر له الحصول عليها... لذلك عرف أن ما فيه هو مثل قبض الريح، فأغلق الدفتر، وعاد إلى التفكير، وقال: كله طار...

خرج وهو يضحك، كعادته قصد الدكان، جمع كل ما فيه، كومه أمام الـدكان، وأطلق فيه النـار، ووقف يراقب النار، فلمـا خمدت، حمل إلى الكومة جردل ماء، دلقه، فذاب الرماد مع الماء، واحتل مساحة أكبر...

ثـم وضـع العارضة، وقصد مقهـى أبو صبرة، اشـترى فص الأفيون بآخر مال يمتلكه، وكوب الشـاي طلبه له الربع، الذي رفض أبو صبرة تحصيل ثمنه...

وهو يستحلب الفص المودع تحت لسانه، وبينما تظهر مرارته على ملامح وجهه، مرت زمرة من نساء النقورة، فمسح شاربًا وهميًا، رآه الربع، فضحك، وشمله بنظرة فاحصة، وقال له:

- عاوز رأيي.
- متقلش اشتغل مع الناطوري.
- متنفعش، أنت متنفعش.
- خلاص أي حاجة تاني أنا أقبلها بس تكون فيها المصلحة.
- لو عاوز فلوس، مش هتلقاها غير مع الحريم.

قـال له ما قال، وغادره، ظـل في مكانه، تتنازعه الأفـكار، وبعد وقت قام وجلس أمام المقهى، عينه على التصليبة، مفترق طرق، وجد نسـاء البلدة وكلهن معروفات لديه، لا يملكن الكثير، بالكاد يواصلن الحياة، يعييهن القرش، فإذا وجدنه، لا يمكث كثيرًا في أيديهن...

أمال مين؟.

سـؤال فور خروجه كانت إحدى نسـاء الشـطر الثاني، فرزها، وعاين ما في رسغيها من حلي، والبقجة التي تستقر فوق رأسها؟ قال: تساوي الكثير، ونظر إلى الشمس كانت قد ارتفعت فعرف أن الصيد لا يمسك به إلا وقت العصاري، والهواء الطري الذي ينعش قد بدأ في الحركة.

في الوقت المحدد ذهب إلى دكانه فتحه، وأخرج الكرسي، جلس عليه، وأسلم عينيه للشارع الذي راح يستقبل الناس، وظهره للدكان الخرب، ورآها تتبختر، تمشـي بخطوات لها ركز، ورأى الهواء وهو يطير بثوبها فيمضي إلى الخلف، فيلتصق بجسدها فيظهر تقسيماته، غرس عينيه في مكان بعينه رأته؛ فهمهمت، ومن رفيف شفتيها عرف أنها تسبه...

مـن فحصها عرف أنها مثل النار، تدفئ من يقترب منها بحرص، أما لو تهور فالويل له، كانت أول من رآها، (موزة)، مثلها مثل نساء النقورة، تخرج بوجه مكشوف تحمل بقجتها المودع فيها كل حاجيات نسوة البلدة، تحافظ علـى اتزانها بمدها لذراعها، فينزاح كم جلبابها فيظهر سـاعدها المكتنز، والأساور تغوص في رسغها، لامعة بانعكاس لون الشمس الغاربة عليها.

الآن وهي تحت نظراته، وصلها ما خلفها، فهدأت من معدل مشيها، منتبهـة إلى العينين المتحفزتين بالشـهوة وبشـيء آخـر كانت تجهله، تبعت ابتسـامته، التي شـدتها، فانحرفت إليه، هو مـن مهد لها الطريق لتكون بجواره، ويأتي بسبب لما فعل:

- يا ريت ألاقي معاكي إزازة عطر كويسة.

جلست أمامه على الأرض، في زاوية، كان صدرها طوع عينيه، وبدأت ببـطء تفك بقجتها، وأخرجـت له واحدة، أخذ بعـض رزازها على ظهر يده، وشـمها، وعيناه لا تبرح مفرداتهـا، هي كان في مقدورها أن تفضح ما في قلبه...

(مـوزة) كانـت تعيش بطولها مـع ولديها، بعد أن فقـدت زوجها في معركة نشبت بين الحلب وأهل القرية رفضوا استضافتهم ودوابهم.

أيامهـا كانت المرأة في أول أيام حدادها، عاينها بعين رجل أربعيني، يعـرف جيدًا من أين تؤكل الكتف، ويعرف اتجـاه الريح فيفرد لها قلعه الذي كتب عليه «هكذا تكون المرحلة».

رأي كم المصاغ الذي أخفى لحم رسـغيها، والحلق الذي تعلقه في أذنيها، والكردان الملفوف حول رقبتها.

ظل يراقبها، فعرف خط سيرها، وأنها كل مساء تعود من الطريق المحـاط بدغـل النخيـل المتصل، رتـب أموره بـأن اصطحب معه كلبـه الشـرس، وانتظرها، حتى إذا ما ظهرت، أطلـق الكلب، فنبح،

فارتبكت، وكادت أن تفقد توازنها، هنا وفي اللحظة المناسبة خرج لها وراح يزود عنها...

مع الأيام قويت العلاقة بينهما، فعرض عليها الزواج كونه أمان الكبر، مثله مثل الثراء، فوافقت، فراح يشرب من قلتها، وداس فراشها، وبحجج كثيرة واهية سلب منها كل ما كانت ترتديه، وما كانت تخفيه تحت البلاطة ليكون لها عونًا في كهولتها.

وذات يوم استيقظت، فلم تجده، فراحت تندب حظها، دلها أولاد الحلال إلي أبواب الناطوري، فوقفت شاكية، قابلها أبو فريج فجاهد بكل قوة لديه من أجل إخفاء النظرة الشهوانية التي طوقت كل شبر في جسدها، المرأة تكلمت بطلاقة لا مثيل لها، ولما انتهت، قال الناطوري للداهية:

- قول اللي عندك؟
- كلام، والكلام كما تعرف في بلد مثل بلدنا لا يضر ولا ينفع.

تركه والتفت إلى موزة، وسألها عن الأشياء التي أخذها،

ردت المرأة وقالت:

- قرشناتي.
- وكيف خدها؟

أشارت إلى ما بين فخذيها، وقبضت عليه، وقالت:

- ده هو السبب.

وحكم الناطوري برد مال المرأة.

هو الآن أمامي، كم مضى على ما كان؟، الكثير من السنوات، قبل اليوم الكابوسي بسنوات، كان شابًا يومها، يختلف كل الاختلاف عن الكائن الماثل أمامي، ربما كان يومها منحدرًا إلى الشيخوخة، كان كذلك وهو يكابر، ما كان المضيع مال والده في نزواته يعلم أنه سيبلغ ما يطلق عليه أرذل العمر، مرحلة لا يمكنه النكوص عنها... لكن لا فالشيخوخة مرض يعود إلى تسمم البنية، وتحلل الأعضاء، ما يقوم به من عمل يومي لا يدل على ذلك... هو أمامي كل سنة، في نفس الميعاد يظل صامدًا على ساقين تحملانه إلى الساعات الأولى من اليوم الجديد، وخلاف اليوم هو في كل ليلة في مكان، طهور، زفاف، خطوبة، وإن تعذر فرحلة قصيرة إلى البندر، هناك يلتقي بنفر ما زال على صلة بهم منذ أيام شبابه. يجلس معهم على المقهى، ويشرب سيجارة محشوة بالحشيش، وفي نهاية الليلة يعود بلفة كباب، يفردها بينه وبين زوجته التي تصغره بنحو عشرين سنة، يأكل هو أغلب اللفة وهي تكتفي بمشاركته، هو يعرف هذا، ويعرف أنها تهيئة لليلة سمر على السرير ذى الناموسية، والعمدان المذهبة...

رغــم شــكله وصمتــه، إلا أنه مثل شــجرة تأخذ ما تحتــاج من غذاء بواسطة جذورها الضاربة في التربة، توزع ما امتصته إلى سائر الأغصان، فتورق بعد تجرد، وتزهر بعد عطل، وتثمر بعد عقم.

ابتسامتي تخرج غصبًا عني إذ أصل إلى وصفه بـ (الرجل الشجرة).

تصله، فأتحرك إليه، وأشاركه الجلوس على الكنبة المعتلية المسرح، ملمــس يــده وهي نائمة في راحتــي، تقول إن ثمة ليونة تســكنها، دليلًا قاطعًا على وجود الماء بنســبة كافية في جســده، تقول إنه لم يصل إلى مرحلة الرجل المقدد...

يبــدو أن رغبتي في إثارتــه، تذروها ريح صمته، فهو قد رضي بحكم الأيام، التي حضنت حكايته، كانت ككرة الثلج، صغيرة المولد، وحينما تدحرجــت من فم إلى فــم تضخمت، هو يعرف الحشــو فيها، لكنه لا يرغب في فتح الموضوع...

حتــى وهو بجــواري الآن، وعينــاه تطوقان على الوجــوه القليلة التي بــدأت فــي الحضور على صدى صوته الذي أطلقــه لمرة واحد. يكتفي بمراقبتهم، وهم ينكمشــون على الــدكك، يعمقها مع توافدهم، يراقب أيديهم الخالية من (الزقل) والعصي، وهي تدخل موتورة في سباق قضم الأظافر، أو الفرك...

وبين الفينة والأخرى، يخص الربع بوابل من النظرات، وهو منهمك بإخــلاص في إفناء علبة ســجائره النائمة بجواره، بنهــم الجائع كعادته،

يتابع حركة فردين جلسا بالقرب منه، يتبادلان حديثًا هامسًا، ابتسامة تنفلت من بين شفتيه، تكون لها وقع نظرة المدرس لتلميذ بليد، على وجه أبو فريج...

أتمنى لو تصاعدت وتيرة المشهد المنتبه إليه، فمن يدري قد أظفر منه بالذي ظل السنوات يخفيه في قلبه، لأمنية لم يطل زمن تحقيقها، فها هي تنفلت منه ضحكة عالية، يصلنا صداها، لكنه عاد وقتلها كأنه أحس بالصمت الذي جرحه بما فعل...

يهز أبو فريج رأسه ويقول:

- صحيح يا أولاد كل حاجة عاوزه عزم.

وتخرج سكرة وبيدها صورته، وباليد الأخرى مدق الثوم ومسمار، يراها الجميع فيقفون، وتشخص العيون إليها، وهي تدق المسمار وتعلق عليه الصورة.

ارتعشت، وأغمضت عيني، وتذكرت بعض القصص التي رأيت كثيرًا أنه من الأفضل ألا نرويها، كنت مقتنعًا بأني قويت العلاقة بيني وبينها، كثيرًا ما حيرتني معادلة الرابح والخاسر، أهو أنا أم ذاكرتي المعول عليها، ذاكرة طفل كانت غضة، خانتني والصورة أمامي تناغي عيني، تقول لي قل وافتح قلبك لي. وقل ما حدث، وحتى وإن لم تستطع الجهر بها فاجعلها في نفسك تعيش، ولا تكن مثل رقاص الساعة، وأنظر إليها...

الصوت القوي إما أن يزعج أو أن يصنع ما يشبه الخلخلة القادرة على صنع توحد مع ما يجري والذي هو بطبيعة الحال مصدر الصوت.

انقسمت النظرات بين متابعة المباني في مدينة كبيرة وبين تلمس خطوات أمي الممسكة بيد جدي، كل شيء كان غريبًا، صمت جدي الذي لم يكن أحد مهما كان يقدر على إسكاته، كان صامتًا ويده المرتعشة مستسلمة ليد سكرة، بحق كان يعاني من نموذج نادر من السكوت، يومها كانت لدية تعاسته الخاصة، بدأت بوقوف سكرة بينه وبين صاحب النجوم، قال لها «تنحي» هي كانت قادرة على استيعاب ما يحدث، فقدماها كانتا تقفان عند آخر حدود خطها بقطعة البوص، وهي بداية البلدة من جهة الجسر، ولأن اللحظات معدودة لم تكن قادرة علي معرفة ما تخسره أو ما سوف تكسبه، وبحسبة أنها ابنته، تصرفت غير الواقفين بجوار الجدر تحجمهم البنادق، فما أن وطأت قدمه الحد الذي وضعه، اندفعت و هجمت عليه بيديها في صدره، فتراجع، فما كان منه إلا أن هجم وألقى بها على مكونات الرسم، فانحسرت جيبتها عن فخذيها، فمد يده المرتعشه وسترها، وكأن الرسالة قد وصلت فأمر رجاله بالتحرك، وبعد يومين جاءت نفس الحملة، وأخذته، لحظتها كنت أنا النوتي ولم أخف، ومع انطلاق الركب، تحركت إلي البيت بصحبة سكرة.

وذات يوم خرجت معنا أمي وتوجهنا إلى حاضرة الإقليم، وهناك قصدت المصوراتي الجالس بجوار البنك، أجلس الرجل جدي على

كرسي خلفه قطعة من القماش الأسود مربعة الشكل كخلفية، وهو عاد ودفن وجهه خلف ستارة الكاميرا المرفوعة فوق حامل ثلاثي الأرجل، والتقط له صورة، وحينما انتهى توجه إلى جردل وراح يحمض الصورة، وجدي أخذ يلوك بعض اللقيمات، انتهى فقبل ظاهر يده وباطنها، وعدنا إلى البيت وظلت الصور في مكان لا أعلمه، حتى كان يوم رأيتها تدخل البيت وتحت إبطها لفة، حينما نزعت الغطاء، كانت الصورة كما هي الآن، ربما طالها بعض التغير في اللون، بدأ اللون البني يزحف على كثير من الأجزاء وكذلك اللون الأصفر الباهت، لكن وقعها كما هو ظل موجودًا في قلبي، رغم مضي سنوات على النظرة الأولى، فهي صورة أبيض في أسود، كانت جيهان أول من علق عليها، ولامت على أمي أنها تحتفظ بها، كونها بلونين لا ثالث لهما، نظرت أمي إلى الصورة، وقالت إن الضد يُظهر حُسنه الضد، ثارت جيهان، وقالت:

- الكلام ده تقوليه للتلاميذ عندك في الفصل.

ابتسمت سكرة وأدارت الصورة وجعلتها مواجهة لوجه جيهان، وطالبتها بالنظر إليها، وهي تقول إن الأبيض والأسود فكرة متكاملة.

جيهان نظرت، وأشاحت بوجهها، أما أمي فحملت الصورة وصعدت إلى الرواق، وأنا بعد سنوات والصورة أمامي الآن فوق رأس أبو فريج، أملك تفسيرًا جديدًا، فسكرة حينما اختارت اللونين، أرادت أن تقول إن الأبيض

صريح، وهو يمثل حكاية الناطوري، والأسود خنوع أهل البلد، قد يكون هناك مقولة راسخة، يمكن وضعها في صورة معادلة:

الأسود = الموت

الأبيض = الحياة

ياه من الأفكار، ومن الإبحار في أشياء لا تعني القادمين من أهل البلد، والناظرين إلى الصورة في مكانها، والحسرة تطل منهم، نظراتهم يوزعونها بين الصورة وبين المدخل الذي سوف يدخل منه الشيخ سيد.

مع الانتظار يظهر الملل، وتظهر الحكايات، تأتي بعفو الخاطر، لا تحمل جديدًا، كلها عابرة، تدور حول شقاء الأيام، وإذا حدث ومررت بجوار جمع منهم، كانوا بطريقتهم يتوددون إلى، فلا يتم ذلك، لا لشيء إلا لأنني أنا من كان يرفض ذلك.

وحينما يأتي الشيخ، يتوجه مباشرة إلي المسرح، يفسح له أبو فريج المكان، ويجلس بجواره، ويبدأ الشيخ، وحينما ينتهي من قراءة الربع، يسرع الحضور إلي السماط، وتبدأ الصواني في الخروج من داخل الدار، وقتها أنظر إلى شرفة البيت، فألمح سكرة في ملابس جدي، وهي تضحك، وجودها دائمًا لا يستغرق أكثر من دقيقتين، ثم توصد الشباك، وتنزل لتساعد أم ياقوتة، وزهيرة في الغرف، بينما جيهان وياقوتة تجلسان في انتظار انتهاء مد الأكل، لتقضيا أغلب الليل في غسل الأطباق.

(8)

امرأة الحزن

الفوضى بعينها، أقول لنفسي والساحة تعج بالدكك والكنب، وبعض أهل الرهبة مكومون عليها يجاهدون نومًا ملحًا، وسطهم يتنقل صاحب الفراشة ليجمع حبال النور، وعدة أبو فريج شبه النائم بجوار السماعة التي صدح خلالها الشيخ سيد المنفرد به الجد هاشم أمام بيته، يتشاركان ككل مرة سيجارة مغمسة، ومن بعيد يراقبهما العم سليم المنهك من الوقوف والتخديم على كل من جاء من أهل البلد لحضور الذكرى، حريص كل الحرص على إيهام الرجلين بأنه لا يعنيه ما هم فيه، كل ما يعنيه التركيزعلى حركة الأفواه ومحاولة قراءة ما يدور من حوار، أحيانًا ينجح وأحيانًا كثيرة يفشل، المهم أنه يظل هكذا جالسًا حتى تعود زوجته وابنته إلى البيت بعد أن يعود بيتنا إلى سابق عهده، هو لم يفعل هذا إلا بعد أن وبخته زوجته في السنة الأولى حينما خرجت ووجدته غير موجود، وكما قالت لسكرة، دخلت البيت وضبطته نائمًا، فلكزته فقام،

فلما أحسـت أنه في كامل يقظته، قالت له «الرجل يسـتهال إنك تبقى صاحـي الليل بطوله» وزيادة فـي العقاب، تركت لـه الغرفة، ونامت مع ياقوتة، من يومها وهو ينضم إلى صاحب الفراشة، والشيخ سيد، يعمل معهم حتى يطرد النوم، خوفًا من غضب زوجته.

أخيرًا يقوم الشيخ سيد، ويودع الجد هاشم، ويشير إلى الولد الصغير الذي جاء برفقته، وما أن يصل إليه حتى يقول له بصوت واضح:

- خدت عشا أخواتك.

يجيبه الصبي، فيربت على رأسه ويمضي، ويبقى الجد، والعم سليم، والربع في مكانه لم يبرحه، حوله تتناثر أعقاب السجائر بكميات كبيرة، بحسبة بسيطة يمكننا أن نعرف أنه أتى على علبتين كاملتين، يلقي بآخر واحدة ويدهسـها، ويقوم، ويمضي بـدون أن يقول «تصبحوا على خير»، أتبعه وهو يتجه إلى حنك الرهبة، فأجد ظهره يتجه إلى الانكفاء للأمام، ومقدار المسـافة بين خطواته قد ضاقت من العام الذي سبقه، علامات تقول لي أن نهايته أوشـكت قريبة، دلالة تجعلني أتحسر لو فقدته ذات يوم بدون أن أقف على شاطئه وأعرف ما عليه وما في بطنه من حكايات لم تظهر بعد، فهل هذا اليوم قريب؟

أتـرك كل هذا وأدخـل البيت متعللًا بشـيء ما، على سـبيل المثال شرب الماء، الإتيان بكوبين من الشاي واحد لي والآخر لصاحب نصيبه، كل هذا لا يدخل على سـكرة، ولا على السـت فوقية، ولا على زهيرة، والأخيرة صريحة لا تخفي أي شيء إذا ما عن لها، فهي من أهل المدن،

الموصوفين بـ(الفهلوة) وأنهم أبناء نكتة، فحينما تجدني أدخل ونظراتي تتجه ناحية جوف الدار حيث تل الأطباق والآنية، وياقوتة المتحررة، وجيهان التي تصر أن تكون في مثل شكل ياقوتة، حتى تقول لها إنها مثلها، ومهما جاهدت كي أوهم الجميع بأن عيني لا تستقران علي شيء، كانت تكتشف قصدي، رغم هذا كنت ألتقط صورة لياقوتة، أجدها مكتملة، أنثى بحق وحقيق، فهي سمراء ذات قوام ممشوق، لم يغيره الزواج، ولم تنهكه الحياة، ولم تسجنه محظورات جيهان ولا أفكارها، لكن ثمة حزن يطل من عينيها، حزن يستطيع المدقق أن يجده واضحًا وهي تدخل في حمية تشطيف الأطباق وغسلها، وعدم انتباهها إلى عيني وهما تأكلان ساقيها المنحسرة عنهما العباءة الخفيفة، ولا عيني جيهان وهما تنظران وهي تحبس حسدها كون ياقوتة حصلت على تذكرة الزواج والتي بموجبها غادرت الرهبة والبلدة برمتها كلها لتسكن إحدى بنايات المدينة، وتكون مشروعًا لأم سوف يتحقق بعد شهور كما أخبرت بذلك الست فوقية سكرة، متمنية زواج جيهان.

سحبت عيني، وشبح ابتسامة تلوح على شفتي زهيرة كأنها تقول لي بصراحة وبدون مواربة (أنا واخده بالي يا نمس).

أم ياقوتة في أول مرة قالت وهي تضحك:

- ما احنا قلنا يقطع ودنه وييجي ومش هعزها عليه، لكن خلاص راحت لصاحب نصيبها.

أحمر وجهي وخرجت مخلفًا خلفي وصلة ضحك افتتحته جيهان بصوتها الجهوري، وفي الخارج كان العم سليم انضم إلى الجد هاشم الـذي يظهر في أحسـن حالاته بفعل (هبو) الحشـيش الذي شـربه مع الشيخ سيد.

دخولي إلى البيت، يكون مع محو نصف الفوضي، وبقي النصف الآخر في عهدة ياقوتة وجيهان، صادتني عينا سكرة، قلت لنفسي «طبعًا هتسألني، هيه سمعت إيه الليلة دي».

أقـول ككل سـنة إن الناس ما زالت تذكره بـكل خير، وأكاد أتخلص منها وأمرق من جوار ياقوتة، سألتني:

- فيه حد جديد.

أوشكت أن أصرخ: مفيش، فأنا في هذا الوقت بعد التعب في حاجة إلى الراحة، وفي نفس الوقت في أمس الحاجة لوحدة أمارس فيها لعبة الذاكرة.

ولأن ما حدث يحتاج إلى وقت لأستوعبه، قلت لها:

- فيه شوية عيال جوا علشان ياكلوا.

أصبحت أقل رغبة في مراقبة كل ما يحدث وما يدور في تلك الليلة، ربما للتكرار الممل للحدث نفسه من عام لعام، نفس الكلمات ونفس الوجوه ونفس الطقوس.

فبعد الرحلة اليومية أعود إلى البيت، فلا أحصل على الراحة اليومية، كما تعودت، فقط أدخل البيت وأغير ملابسي وأخرج، أتركها وأنا أشعر بالمرارة كوني أصبحت أقل انتباهًا من السنوات الماضية، هي في الداخل يبدو عليها التوتر وزهيرة تستعد للخروج تحت وطأة رؤيتها للجد وهو يبدو كالجالس على النار في قعدته مع العم سليم، تضحك، وتقول:

- يا ويلي منه الليلة دي.

تقوم، وتبقى الست فوقية، في جلستي ألمح الجد وهو يدخل البيت وخلفه زهيرة، وصدى رد الباب يصلني، ومعه الخوف يكبر من وحدة قريبة على سكرة في ليل يبقى منه الكثير، كثيرًا ما نبهتها إلى الجانب الآخر من الذكريات، تلك التي تجعلنا نعود للوراء لنعيش مع ما كان، وننسى ولو لأيام الأيام التي سوف تأتي، هي اعتادت أن تقول لي أن الماضي كونه مضى لا يعني أنه انتهى فهو الأب الشرعي لما نعيش فيه، ثم تسكت وهي لا تعلم إن كنت قد اقتنعت بما قالت أم لا، فقط أهز رأسي، وأقول طبعًا.

هذا لا يمنع تفكيري في جدي وأنا أعبر الطرقات، وأنا أجلس إلى مكتب في عملي، وأنا أجلس إلى أندادي في المقهى، أو وأنا أرى أبناء الشق الثاني وهم يمضون في شوارع البلدة من دون أن يقول لهم أحد إن هناك حدود وضعت لهم فلا يحب تجاوزها، فلا ضير لو قلت لها كلمات تريحها، هكذا أفكر وأنا أرى الساحة قد خلت عليَّ وحولي

الدكك والكنب ومخلفات من حضر الذكرى، فكثيرًا ما سوفت لها أحداثًا وقعت، كانت تسـمع وعلامات الفرح تلوح على وجهها، وليس بالبعيد على حادثة زواج أحد أبناء البلد ببنت من بنات الشق، كانت ليلة مازالت ساكنة في رأسي كثيرًا، لما لها من مدلول، فحينما عدت، كانت تجلس على سـريري، والراديو مضبوط على البرنامج العام وصوت سميرة عبد العزيز يعلن «قال الفيلسوف»، وكما يحلو لها سألت:

- حصل إيه؟

لاحظـت لون وجهها، وتعجبت فالوقت متأخر والمفروض أن يكون مكسـرًا وتغلب عليه علامـات التعب والرغبة في النـوم، لكن وجودها متيقظة وكأنها لحظات صحوها مع تباشير التواشيح، منظر بعث الرغبة بداخلي في محو كل هذا وجعلها تذهب لنومها بقلب خاوٍ من الهموم على الأقل تلك الليلة وفي الصباح يحدث ما يحدث، لذلك قلت:

- كانت ليلة هباب.

- إزاي؟

- ختمت بغم، وقامت عركة ويا دوب خلصت.

ابتسمت ابتسـامتها المحيرة، أكدت بها لي أنني ما قلت الحقيقة، من عادتها عدم الدخول في جدال لتكشف ما حدث، تقوم بدون كلمة، بينمـا يجلس الآخر يرتب أموره، يبحث عن كلمات فيما لو اكتشـفت الحقيقة، بالنسبة لي كان ما يفصل بينها وبين ما حدث، ساعات قليلة،

في المدرسة سوف تصل إليها من أفواه الكثيرين، لذلك كان لا بد أن أعيد ما حدث، لأرتب دفاعاتي...

أنا كنت هناك بالفعل، وشاهدت كل شيء.

أهل الشق امتلأت بهم أجران البلدة، كبيرهم أخرج من جيبه صرة من المال، ودفع بها إلي المنقد، ودلق عليها بعض الجاز، وأشعل النار فيها وقال:

- مبارك زواج الغجرية من ابن القرارية.

ضحك أهل بلدة الإقامة، وكذلك ضحك الفلاحون من أهل العزب المجاورة وطلع واحد من أهل البلدة وراح يرقص على المزمار، اشتعلت النار في أجساد أهل البلدة، فهطلت الفلوس كالمطر على رأس رئيس الطبل، وكتحية من كبير الغجر لضيوفه، قام وأحاط خصر فنيارة بشاله، فبدأت تتمايل، ذكرت الناس بأمها...

لما انتهت اقترب منهما الكبير، وبيده الخبز والملح، وطلب منهما الأكل، نفذا، وعند آخر كسرة من الرغيف، قال لهما:

«عندما لا يبقي لهذا الخبز وهذا الملح أي طعم في فم كل واحد منكما، هذا نذير الملل المتسرب لقلب أحدكم».

الداية التي حضرت الدخلة، قالت بأن الملعونة طالبته بـ «الحلوان» لتكشف له وجهها.!! أخرج لها كل ما في جيوبه، فخرجت بدون أن يمر المنديل على المنتظرين بالخارج... ليلتها ضحك الكبير وقال:

- الدخلة على الموضة

فـي الصباح ذهبت إلى المدرسـة، وحينما عادت كنت أروح وأجيء أمامها لعلها تتكلم أو تقول شيئًا، حتى كلمة كذاب كنت أنتظرها منها، هي لم تفعل، واكتفت بالصعود للرواق، من المؤكد أنها بكت كثيرًا، فهي حينما نزلت كانت امرأة ثانية، سـكرة أخـرى، بحق كانت امرأة الحزن، وبأدق كلمة هي تسكت لأنها لم تجد فتح قلبها إلا للناطوري، والرجال من بعده كانوا يوضعون بواسـتطها في خانـات ضيقة، فالزوج للفراش، والابن امتداد أبيه، أما الأب فهو الكل الذي جاء منه جسدها، وصعودها للرواق ما هو إلا مكان لتحقيق ذلك، هناك تصبح أكثر قربًا منه، وبحرية تمارس طقس الفضفضة، تتكلم بلا انقطاع عن كل شيء، وحينما تنزل لا تجـد ما تقوله، على الأقل فـي ذلك اليوم، وبعده تعود إلى تعليقاتها وأوامرها لجيهان، تقول لها تذكري أنك حفيدة الناطوري، جيهان تسكت فـإذا مـا صفصف المكان علـى وعليها، نقول إن الناطـوري لـم يبق منه إلا حكايـات يتناقلها من هـم على شـاكلة الجد هاشـم، فقط هي التي لا تريد أن تنصت للواقع.

هي كانت تدور في دائرة ذات قطر ضيق، عليه بضعة أسـماء لزملاء العمل، وجارات تربت بينهم، ما زالوا يحملون لها ولوالدها الود، ووجوه تراهـا كل يـوم وهـي تذهب إلـى المدرسـة، تعرفهم، فمنهـم من تعلق بجسـدها يوم أن كان مغريًا، ومنهم من تـاق لأن يكون قريبًا من والدها، فلم يتيسـر له ما طلب لسـبب ما لا تشـغل نفسـها كثيرًا فـي معرفته، والأغلبية للنساء، لهن في قلبها مكانة كبيرة، وحكايات لا تنتهي، شغف زاد حينما عرفت أن لها ما يغري، ويجعلها محط أنظار الشـباب، وقتها كانت رفيقة والدها.

وكلهم في النهاية «من ريحة الغالي».

الغريـب أنها لم تفعـل هذا مع زوجها، فحين مـات كان جدي في صحتـه «وصله الخبـر أولا، فجاء إلى البيت، ولما شـافني أجلس في المندرة أسـرح شـعري، قال لي «لفيه، فيه ناس جايه»، قمت وحطيت إيشـارب أحمـر، شـافه ولم يتكلـم، وغادر البيـت، وما هي إلا سـاعة وعـاد، ودخل على البيـت ومن خلفه رجال يحملون المرحوم، شـفته فصرخت، ولمـا عزمت على تكرارها بص نحوي فأغلقت فمي، ودي كانت صرختي الوحيدة».

والأعجب من كل ذلك، ذهابها إلى الجنائز، فما من ميت يموت في البلدة، إلا وترتدي الملابس السـوداء، ولا تسـمع لنصائحي ولا نصائح جيهان، دائمًا حجتها جاهزة «الواجب مفيش حد ينساه»، وتذهب، وهناك

ما أن تدخل بيت الميت حتى تشرع في البكاء بحرقة، ويطول جلوسها فـي مـكان يباع فيه الحزن، بلا مال وبلا مقـدم، فقط ذكريات تأتي عفو الخاطر، فتستسـلم لهـا، وتروح في غيبوبة، وتصـرخ، دائمًا تنضم إليها واحدة من نسـاء البلد، تكون رأتها وهي تدخل، فما أن تشـرع في البكاء حتى تكون بجوارها، وشـيئًا فشـيئًا تضمها إلى صدرها، وتربت عليها، وهي تقول «أمال يا أستاذة، ربنا يصبرك ويصبرهم».

وفـي الأوقات التي لا يزور فيها ملك الموت البلدة، كانت تلجأ إلى الأغاني ذات الطابع الحزين، وغريب الدار تحتل الصدارة، فإذا ما انسابت الكلمات على لسان وديع الصافي، بكت بحرقة، ومهما فعلنا لن يكون النجـاح حليفنا لإسـكاتها، فكما بدأت تنتهي لوحدهـا هي من تملك البكاء، وتملك إيقافه.

(9)

آخر مشهد

ياقوتـة قاربـت على الانتهاء من غسـل الأطباق، ولـم يبـق أمامها إلا القليل، وسوف تنتهي، وتذهب لبيت والدها وفي الصباح تحمل حقيبتها وتذهب لبيت الزوجية.

بقـدر رغبـة جيهان في طردهـا من البيت، تكـون رغبتي في طلب بقائها لأطول وقت ممكن، أمي حاولت كثيرًا مع جيهان لترتبط بياقوتة، منـذ صغرها وهي تنفر منها، ياقوتة حاولت كثيرًا معها، خصوصًا أنهما متماثلتان في العمر، فـي البداية كانت تذهب وتجلس مع ياقوتة، ومع الأيـام امتنعت عن الذهاب، وحينما سـألتها أمي قالت «البت دي دمها تقيـل، وطالعـة فيهـا مش عارفة علـى إيـه؟»، ياقوتة كانـت أحيانًا تأتي إلينـا، ظلـت هي تقـوم بالفعل، حتى قامـت الجفوة بيـن البيتين، بعد اليوم الكابوسي، جيهان فرحت بالقطيعة، وإن ظلت تراقب نمو ياقوتة، وسلوك جسدها مسلك البنت التي تستعد لأن تكون زوجة بما تمتلكه

من مقومات، تغري الرجال ليلاحقوها أينما ذهبت وحطت، أمي لاحظت ذلك، فقالت:

- أعملك إيه ما أنتي اللي قرفانة.

في أول مرة تعكر وجه جيهان، فما كان من أمي إلا أن قالت لها:

- بس برضو أنت أحسن، يكفيكي إنك بنت بنت الناطوري.

بعد عودة المياه إلى مجاريها بين البيتين، سألت جيهان أمي:

- هيه مقصوفة الرقبة عاملة إيه؟

أمـي كانت تضحـك، وتقول كلامًا عاديًا، لا يؤدي إلى شـيء مفيد، ظل الوضع على ما هو عليه، حتى بعد أن كبرا.

بعد الثانوية، ياقوتة التحقت بكلية التمريض، وجيهان بكلية الخدمة الاجتماعيـة، وهناك في المدينة الجامعية، كانـت تفصل بينهما طرقة، والـكلام بينهما لم يتجـاوز المعتاد بين غريبين، وكما تتسـاقط الأوراق أنهتـا الدراسـة، وقبل جيهان عملـت ياقوتة في المستشـفى المركزي، وهناك عن طريق إحدى زميلاتها تزوجت من مدرس يكبرها قليلًا، يعمل مدرس ابتدائي، ويملك سـيارة قلبها أجرة، تدر عليه دخلًا أضافيًا، أمي كعادتها هونت الأمر على بنتها، وأخبرتها أن نصيبها سوف يأتي، ولكن بمقاييس مختلفة، لأنها بنت بنت الناطوري.

وحينما مرت الأيام، وصاحب النصيب لم يأت، تجنبت أمي أن تركب رأسـها، وراحت تجتهد كلما تقدم أحد ليطلب يد جيهان، أن تجد فيه أي ميـزة تجعله مقبولًا لأن يكون زوجًا لبنتها، هي تجتهد بينما جيهان وضعت سـقفًا لزوج المستقبل، لا بد أن يسكنها في المدينة، ومنطقها في ذلك «مفيش حد أحسن من حد»، تقصد ياقوتة.

يجلسـان الآن أمام بعضهما، ينهيان غسيل الباقي من الأطباق، في صمـت يعملان، من ينظر إلى ياقوتة يعرف أنهـا تمتلك قدرات، تفوق قـدرات جيهان، فهي جبيرة في كل أعمال البيت وتزيينه، منذ صغرها، كانت تحول بيتهم إلى بيت مختلف، كتبها هي أدواتها في ذلك، بذوق تصنـع الفوانيس، واللوحات المعتمدة على فكرة القص واللصق، وفي الخـارج تؤطـر واجهة البيت بطوق مـن الأعلام الملونـة، ولأن يدها بيد أمهـا تعلمت الطبخ وعمـل الحلويات، والكعـك، فكانت الملاذ لكل أهـل التلة في الأعيـاد، مهمتها تقتصر في نقش الكعك والبسـكويت، فأضافت إلى نفسـها ميزة أخرى فوق ذوقها في الملابس التي تختارها، دائمًا تكون بألوان زاهية، وفضفاضة، لا تظهر مؤخرتها الكبيرة، وجودها جـاء بناء على طلب أمي، فهي تجيد طهـي الأرز، بطريقة تجعل الحبة مستقلة عن الحبة الأخرى، كانت قبل زواجها تقوم بذلك، وبعد زواجها، جاءت بعد حديث عابر بين سكرة وأمي، حينما راحت تبحث عن اسم يصلح لإنضاج الأرز بنفس طريقة سـكرة، الست فوقية قالت: ـ يا سلام يا أم حسين، دي ما تصدق لما أقولها.

وجاءت.

كانــت في كامل زينتها، زينة ترتكن إلى شــرعية زوج، نزل بعدها من سيارته الأجرة، يحمل حقيبة صغيرة، ناولها للست فوقية، ثم مال إلى وأنا أجلس أمام البيت البيت، أتابع رص الكنب والدكك، سلم عليَّ، وقال:

- تعيشوا وتفتكروا.

ثم اعتذر عن الحضور:

- طبعًا أنت عارف ظروف شغلي.

وابتسم، وأكمل:

- وياقوتة تسد ولا إيه؟

بادلته الابتســام وغادرني إلى بيت العم ســليم، وظللت واقفًا حتى خرج، وتبعته وبقيت بجوار سيارته حتى خرجت من حنك الرهبة.

دقائــق، وكانــت ياقوتة تأخذ طريقها إلى بيتنا، وقد غيرت ملابســها، مرتدية عباءة خفيفة، تظهر تقاســيم جســدها الــذي زاد زيادة ملحوظة، بفعــل الــزواج والحمل بعــد ذلك، الشــمس المغادرة منتصف الســماء سقطت على وجهها، فرايته ضاحكًا ومشرقًا، طفل يلهو ببلونة مربوطة بخيط، كما كنا نفعل في طفولتنا.

هــو ذاتــه الوجه، يلــوح لي تحت ســطوة الإضاءة الكثيفــة في جوف البيت، بحثت فيه عن تلك البنت التي كنت ألعب معها، لعبة العريس

والعروسة، هل مازال بداخلها أشياء منها؟ الإجابة لا تحتاج إلى كلام، نعم بداخلها فكل واحد منا بداخله نفس الطفل الذي كانه، الابتسامة هي هي ما زالت تحتفظ بها، أراها وأمي تسألها:

- هو بدر عامل إيه؟

ترد:

- كويس.

تمد أمي يدها، تلكزها

«يا بت»

تضحك، فتملأ ضحكتها جوف الليل، فتربت أمي على ظهرها المستقيم الواقع في مرمى نظراتي هو ومؤخرتها المستقرة على كرسي حمام:

- ربنا يسعدك ويهنيكي يا ياقوتة يا بتي.

وتنظر إلى جيهان التي تبادلها نظرة مهددة إذ هي قالت الكلمات التي أصبحت تجلب إليها التعاسة أكثر من السعادة، ارتعشت جيهان من نظرات أمها، وألقت بآخر طبق في يدها، وقامت، توجهت لغرفتها، هذه المرة لم تصك الباب جعلته مفتوحًا، صارت تلك حركتها الأخيرة إذا ما شعرت بحرج ما، أو هي من تسببت في حرج لأحد، وهي بهروبها بهذه الطريقة، وضعت سكرة في حرج أما ياقوتة من تحملت البعد عن منزلها من أجل المشاركة في ليلة تعدها هي ليلة من لياليها التي لا تنسى.

للحظات تتبادل أمي وياقوتة النظرات في صمت، في الواقع الصمت لغة شفيفة، قادرة على إظهار ما في القلوب، فالدمعة المنسابة على خد أمي، تقول كلمات كثيرة، قد تكون بكاء على حال ابنتها، أو ثمنًا لذكرى صاحب الليلة، ياقوتة، تفسرها بطريقة أخرى:

- يا خالة بلاش الدموع أحسن دي بتأذي الميت.

وتقترب منها، وتضم رأس أمي إلى صدرها المكتنز، وتسقط دموعها، خشيت على الماضي وحضوره، المخرب والعاصف، فقمت، وقلت:

- وحدوا الله.

تنهدت أمي وياقوتة... مسحت يديها في طرف الجلباب، ودنت من أمي قبلتها على رأسها وهي تقول:

- تعيشي وتفتكري.

وكالطيف غادرت البيت، ملت على رأس أمي ومكان قبلة ياقوتة وضعت قبلة بتوقيع شفتي، وقلت والدموع تسقط، تعيشي وتفتكري.

المؤلف في سطور

- قاص وروائي.
- عضو اتحاد الكتاب.
- أسيوط ـ مركز الفتح ـ عرب الأطاولة.
- أخصائي كيميائي بالهيئة العامة للتأمين الصحي.

الأعمال

- الجمل هام للنبي... قصص قصيرة... مركز الحضارة.
- تل الفواخير... رواية... الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- رمسيس الثاني البناء الأعظم... روايات الهلال.
- بياع الملاح... رواية... مركز الحضارة.
- بينوزيم... الكاهن الأكبر... روايات الهلال.
- طوق من مسد... رواية... سلسلة إبداعات الهيئة العامة لقصور الثقافة.

- الإضراب الأول... روايات الهلال التاريخية.
- ساوتي... رواية... روايات الهلال التاريخية.
- صور مؤجلة للفرجة... قصص... دار شرقيات.
- دوامات الصمت والتراب... قصور الثقافة... سلسلة إبداعات الثورة.

الأعمال

- أفضل رواية من الهيئة العامة لقصور الثقافة 2006.
- جائزة القصة من جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين الثقافية عام 2006، وكذلك جائزة الرواية عام 2007.
- جائزة نادي القصة في الرواية 2007.
- جائزة القصة من جمعية الرواد بأسيوط 2005.
- جائزة إحسان عبد القدوس في الرواية 2008.
- جائزة أدب الطفل من جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين 2008.
- جائزة القصير في الإبداع القصصي 2010.
- جائزة الرواية من اتحاد الكتاب 2010.
- جائزة ساقية الصاوي في الرواية 2012.

Elblky 2002 @ yahoo.com